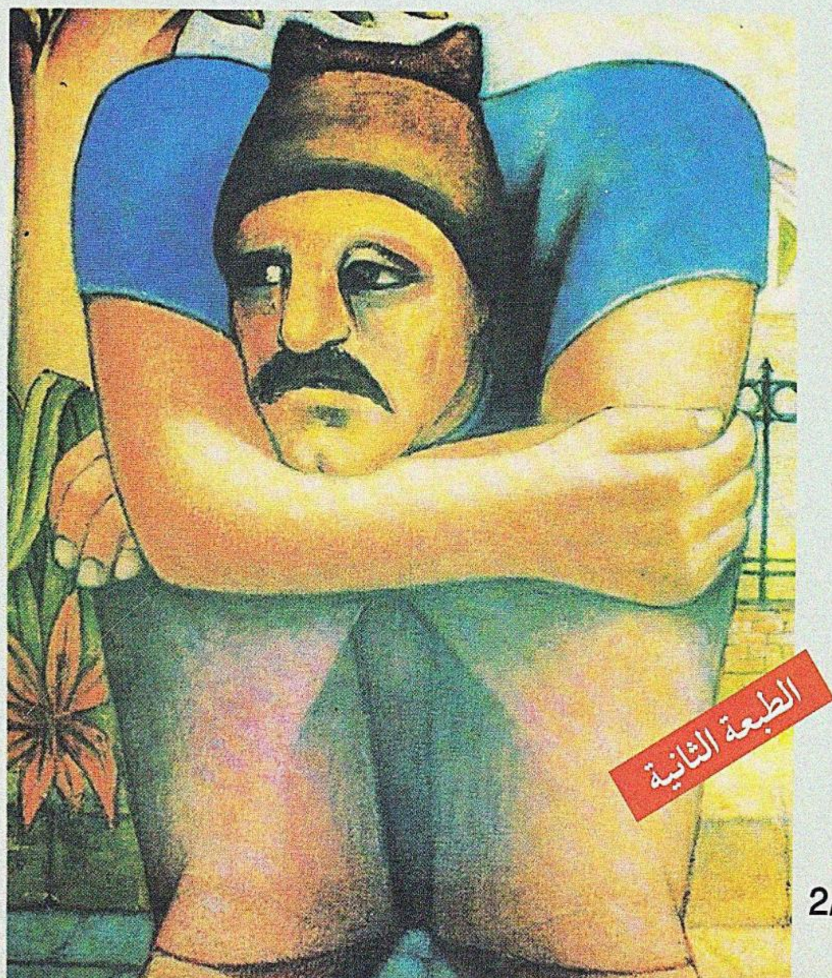
المركز القومى للترجمة

برتراند راسل

في مدح الكسل
ومقالات أخرى

ترجمة: رمسيس عوض



2/65

المشروع القومى للترجمة

فى مدح الكسل
ومقالات أخرى

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٦٥ / ٢
- فى مدح الكسل ومقالات أخرى
- برتراند راسل
- رمسيس عوض
- الطبعة الثانية ٢٠٠٩

هذه ترجمة كتاب:

In Praise of Idleness and Other Essays

by: Bertrand Russell

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

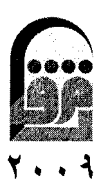
E-mail: egyptcouncil@yahoo... Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

فى مدح الكسل

ومقالات أخرى

تأليــــــــف: برتراند راسل

ترجمـــــــة: رمسيس عوض



٢٠٠٦

رقم الإيداع: ١٠١٠٧ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولى: 9 - 240 - 479 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

القسم الأول : برتراند راسل

مقدمة

برتراند راسل الأديب

يعرف القارىء لأعمال برتراند راسل أنها تجمع عادة بين جمال الأسلوب وبساطة التعبير ووضوح الفكرة . فضلا عن أنه أسلوب يتحلى بالنكتة الذكية والدعابة الطلية التى تجعل الابتسامة تكاد ألا تفارق شفتى القارىء أبدا .

وفى مقال كتبه برتراند راسل بعنوان «كيف أكتب» ، منشور فى كتابه «صور من الذاكرة ومقالات أخرى» (١٩٥٦) ، يلقى هذا الكاتب المبدع غير قليل من الضوء على محاولاته الأولى فى الكتابة ، وما طرأ على أسلوبه النثرى من تطور .

يقول راسل فى هذا المقال إنه – قبل أن يبلغ الحادية والعشرين من عمره – كان ينظر إلى أسلوب «جون «ستيوارت ميل» فى الكتابة على أنه مثل يحتذى ويستحق محاكاة تركيب عباراته وطريقته فى تطوير الموضوع الذى يعالجه . ولكن إعجابه بأسلوب «جون ستيوارت ميل» ، على أية حال ، لم يحل دون رغبته فى استحداث أسلوب نثرى مستمد من علوم الرياضة ، يجمع بين أقصى درجات الوضوح والايجاز معا . فقد أظهر راسل منذ مطلع حياته ككاتب حرصا فائقا على التعبير عن أفكاره بجلاء شديد ، مستخدما فى ذلك أقل عدد ممكن من الألفاظ . وليس من شك فى أن هذا ما حدا به إلى أن يقول هازلا أنه تأثر بأسلوب «بيديكر» الناشر الألمانى فى القرن التاسع عشر الذى اشتهرت داره باصدار سلسلة من الدلائل والكتب المرشدة) أكثر من تأثره بأى نموذج من النماذج المعروفة فى عالم الأدب .ورغم أنه لا ينبغى أن يفوتنا أن نذكر أن أسلوب راسل النثرى قد يشبه سلسلة «بيديكر» المرشدة فى بساطتها ووضوحها ، ولكن أنى لهذه السلسلة العارية من الجمال أن تتضمن – ولو قدرا ضئيلا للغاية – من فيض الحسن الغامر الذى تتميز به كتاباته .

وعندما بلغ راسل الحادية والعشرين من عمره ، وقع ، لبعض الوقت ، تحت تأثير الكاتب «لوجان بيرسال سميث» ، الذى تزوج راسل أخته فيما بعد . كان اهتمام «لوجان بيرسال سميث» الأدبى ينصب انصبابا تاما على العناية بالشكل دون أن يأبه بالمضمون أو يقيم له وزناً ، مستلهما فى ذلك «فلوبير» و «والتر باتر» اللذين أوليا الصياغة كل اهتمامهما . ونصحه «سميث» بإعادة كتابة ما يسطره قلمه سعيا منه وراء التجويد حتى يبلغ به مرتبة الإتقان . وأراد راسل أن ينفذ هذه النصيحة بأمانة دون جدوى . فقد أدرك بالممارسة أن إعادة كتابة أى شىء لا تزيد من جماله ، بل أنها تدمر ما كان يتحلى به من مميزات ، وأن المسودة الأولى تفوق ، فى سائر الحالات ، المسودات التالية فى جودتها وحسن صياغتها ، الأمر الذى دعاه إلى نبذ النصيحة التى أزجاها إليه «لوجان بيرسال سميث» . وساعده التخلى عن إعادة كتابة ما يكتبه على توفير جانب كبير من الوقت الذى كان يضيع منه هباء منثورا فى محاولة التجويد . ويصرح راسل فى يومنا الراهن أنه لا يقدم على إعادة صياغة أى شىء يكتبه إلا إذا اكتشف أنه قد ارتكب خطأ فاحشا يتصل بالمادة التى يتناولها ، وليس فى أسلوب صياغتها .

ويذكر راسل أن القلق الشديد كان ينتابه فى أول عهده بالكتابة بسبب حرصه البالغ على جودة ما يكتب . وكان هذا القلق سببا فى إخفاقه فى بادىء الأمر فى التعبير عن نفسه بطريقة تبعث على الرضا . وبعد أن استطاع راسل أن يتخلص من هذا القلق المدمر ، أصبح النجاح حليفه . وأخيرا اهتدى إلى أفضل طريقة يعبر بها عن نفسه ، وذلك بأن يتخلى عن التفكير الواعى فى أى موضوع يشغل باله لفترة من الزمن حتى يقوم لاشعوره بتفريخها . عندئذ ، تطفو أفكاره على سطح الوعى جلية واضحة كما لو كانت إلهاما أو قبسا من ضياء . وكانت محاضراته التى ألقاها فى جامعة بوسطون عام ١٩١٤ بعنوان «معرفتنا بالعالم الخارجى» أول تجربة أثبتت له فاعلية هذه النتيجة ونجاحها . وهكذا اكتشف راسل نفسه ، وانصرف عن محاكاة «فلوبير» و «باتر» .

وإن هذا لا يعنى أن أسلوب راسل النثرى يجنح دائما نحو البساطة . فقد كان راسل فى بعض كتاباته المبكرة يجنح إلى استخدام أسلوب خطابى رنان مزركش كما يتجلى لنا من مقاله «عبادة الرجل الحر» الذى ينم عن تأثره بأسلوب «ميلتون» الطنان الفخم الرصين .

ويرى راسل أن الأسلوب لا يمكن أن يتصف بالجودة إلا إذا كان يعبر عن شخصية صاحبه بطريقة لا إرادية . هذا إذا كانت شخصيته تستحق التعبير عنها بطبيعة الحال . وبالرغم من أن راسل يعترض على محاكاة أى أسلوب مهما بلغت جودته فإنه يرى أن معرفة الكاتب الوثيقة بالأساليب النثرية الجيدة تنمى فيه الاحساس بما يسميه «الأوزان النثرية» .

وينصح راسل الكتاب الذين يتناولون الأفكار فى كتاباتهم بالعرض والشرح والتحليل ، بالابتعاد عن استخدام أية كلمة طويلة إذا كانت هناك كلمة قصيرة يمكن أن تحل محلها . كما أنه يدعو إلى تجنب استعمال أية عبارات اعتراضية من شأنها أن تعوق وضوح الجملة . ويرى راسل ضرورة صياغة هذه العبارات الاعتراضية فى جمل مستقلة . كما أنه ينصح الكتاب كذلك ألا يبدأوا أية جملة بطريقة توحى للقارىء بفكرة معينة ثم يختتموها بفكرة مناقضة لبدايتها .

مؤثرات أدبية فى حياة راسل

تتسم شخصية برتراند راسل بالحس المرهف الدقيق . فرسل فنان بالقوة حتى إذا لم يمارس الخلق الفنى بالفعل . وهو يحمل بين جنباته روح شاعر عظيم بالرغم من أنه لا ينظم القريض ، وبالرغم من أنه لم يحس فى دخيلته بحافز يستحثه على قرضه . ويكفينا للدلالة على هذا أن نشير إلى ما كتبه «جوليان هكسلى» فى هذا الصدد فى مقال له بعنوان «إطار المذهب الإنسانى» (١٩٦١) : -

« إنى أحب أن أذكر أن التأثر بلغ ببرتراند راسل وهو طالب فى جامعة كيمبردج مبلغا عند سماعه لأول مرة قصيدة «النمر» للشاعر «بليك» التى ألقاها على مسمعه

صديق له وهما يرتقيان درج الكلية أنه تعين عليه أن يستند إلى الجدار حتى لا يتهافت أو يخور ».

ويذكر لنا برتراند راسل فى مؤلفه «الحقيقة والخيال» (١٩٦١) الكتب التى تأثر بها فى شبابه بين الخامسة عشرة والحادية والعشرين ، أى فى الوقت الذى كانت فيه الكتب تلعب دورا خطيرا فى تكوينه العقلى . كانت أسرته المتحررة فى شئون السياسة ، والمتزمتة فى كل ما عداها تنظر إلي آرائه الجريئة التى كان يبديها فى يفاعته نظرتها إلى آراء إنسان به شذوذ أو شرود فى الطبع . ولكن قراءة الكتب فى تلك الفترة من حياته الهمته أملا ومنحته شجاعة وحرية فى التعبير عن خواطره . فضلا عن أنها طمأنته إلى سلامة عقله . فقد استيقن أن الكتب التى ألفها أعظم المفكرين الذين يتطلع إليهم العالم كله فى إجلال وتبجيل تتضمن آراء جريئة لا تقل فى شذوذها عما رميت به آراؤه نفسها ، الأمر الذى أدخل على نفسه الطمأنينة والارتياح .

كان برتراند راسل فى هذا الطور من حياته يعنى بالانتهال من موارد الجمال ، وخاصة الانتهال من جمال الشعر والطبيعة ، كما كان يلح عليه أمل حى فى إنقاذ المصير البشرى من الوهدة التى تردى فيها . وفوق كل شىء وقبل كل شىء ، كانت تسيطر عليه رغبة متأججة فى فهم العالم عن طريق دراسة الرياضة والعلوم . ولم تسمح له تربيته المنزلية البيوريتانية المتزمتة بقراءة كل ما تهفو إليه نفسه . وسمحت له الأسرة بقراءة شكسبير ، و«ميلتون» ، وقصائد «اللورد بيرون» ، باستثناء «دون جوان» ، إلى جانب أشعار «تينيسون» التى لم ترق له بسبب ما تنطوى عليه من إفراط فى العاطفة يصل إلى حد الرخص والابتذال . وفى يوم من الأيام وقعت أنظاره على قصيدة «شيلى» بعنوان «ألاستور أو روح الوحدة» ، فاستولت هذه القصيدة على شغاف قلبه ، وانتشى بها انتشاء لا مزيد عليه . وبهرته موهبة «شيلى» التى مكنته من صياغة أفكاره الجميلة فى قالب لا يقل عنها جمالا . ولم يكن إعجاب راسل بـ «شيلى» ، فى بادىء الأمر يرجع إلي عطف من جانبه على ما أظهره هذا الشاعر الرومانسى

من تمرد سياسى بل كان إعجابا فنيا خالصا بشعره الغنائى وبلغ به الكلف بشعر شيلى الغنائى مبلغا جعله يستظهر كل قصائده القصيرة التى تعالج الحب . وأحب راسل فى شعر «شيلى» يأسه ووحدته والمناظر الطبيعية الخيالية الخلابة التى بدت كما لو كانت حلما سرمديا جميلا . وراق «شيلى» فى عينه ، فى المقام الثانى ، من الناحية الفكرية لأنه رفض الأفكار التقليدية التى لا تستند إلى دليل معقول أو مقبول . ويتضح لنا من هذا كله أن برتراند راسل كان رومانسيا كاملا فى مطلع حياته .

ومن مظاهر هذه الرومانسية المبكرة أنه تأثر فى حداثته بأعمال «تورجينيف» الروائى الروسى . وبالرغم من إدراكه فيما بعد أن «تورجينيف» يقل من موهبته الفنية عن كل من «دستيوفسكى» و «تولستوى» ، فقد استطاع هذا الروائى الثائر أن يلمس شغاف قلبه كما لم يلمسه أى روائى آخر . والذى راق لرسل فى أدب «تورجينيف» هو تصويره لمجتمع من الشباب الجاد الملىء بالأمل فى إقامة حياة أفضل ، والساخط على المظالم الاجتماعية والأوضاع العفنة . ووجد راسل فى أدب «تورجينيف» صورا من صنع الخيال لرجال صناديد يكافحون جاهدين لإقامة عهد جديد من العدل والنور . وتركت قصة «تورجينيف» «الآباء والأبناء» فى نفس راسل الشاب أثرا عميقا ليس لعمقه قرار . وتعبر هذه القصة عن أمل الأجيال الروسية المتعاقبة فى يوم الخلاص . وتدور حول رجل أسمه «بارازوف» يبشر بالفلسفة العدمية . وليس من شك فى أن آراء راسل السياسية فى مطلع حياته كانت تعكس هذا الأعجاب الشديد بالعدمية كما يتجلى لنا من كتابة «الطرق إلى الحرية» الذى نشره فى عام ١٩١٨ . وبالرغم من أن راسل قد تخلى نهائيا عن رومانسية المتمردة ، فأنه لا يزال يحمل بين جنباته حبا لـ«شيلى» و «تورجينيف» لم تستطع الأيام أن تمحو آثاره .

ويبدو أن «أبسن» بالمقارنة ، قد ترك أثرا محدودا فى شبابه ، لأن راسل فى كهولته يجد عسرا فى تحديد ما تركه فيه من أثر . واكتشف راسل فى حياته اللاحقة أن ما أظهره من تحمس سابق لـ «أبسن» في أيام الشباب لم يكن قائما على الاعجاب

الحق به ، بل كان راجعا إلى عطفة بوجه عام على كل أدب ثائر يقف فى وجه التقاليد الموروثة ويتحداها . واستهوت راسل شخصيات «أبسن» النسائية المتمردة على الاخلاقيات التقليدية الزائفة كما استهواه فيهن حرصهن على حريتهن العاطفية واستقلالهن الفكرى ، ولكن تحمسه لمسرحيات «أبسن» لم يكن سوى مظهر من مظاهر تمرده الرومانسى المبكر ، الذى نبذه بعد أن حنكته التجارب واكتمل نضجه الفكرى . وبالرغم من تخليه عن رمانسيته ، فأنه لا يزال حتى يومنا الراهن يعتبر «أبسن» واحدا من أحسن كتاب المسرح فى مقدرته على تطوير أحداث مسرحياته . ولكنه يعيب على شخصياته أنها لا تعدو أن تكون تجسيدا لأفكار ومبادىء ، وليست شخصيات مستمدة من الحياة تجرى فى عروقها الدماء .

وإذا كان للرومانسية جانبها المتفائل المشرق الذى يؤمن بامكانيات الإنسان اللا محدودة نحو الكمال ، فإن لها وجها آخر حزينا يفيض بالكآبة والابتئاس . وأنه لمن الخطل أن نظن أن حياة راسل فى شبابه كانت كلها تفاؤلا واستبشاراً ، فقد كان في يفاعته يمر بفترات حزن أسود ويأس قاتم . وفى لحظات الحزن والاكتئاب ، كان راسل يقرأ فى «رحلات جليفر» لـ «جوناثان سويفت» تعبيرا عن يأسه المطلق الذى لا يخترقه بصيص واحد من نور . ويرى راسل أن اليأس الذى تنطوى عليه «رحلات جليفر» يعوق فى كثافته ما عرف عن مسرحية شكسبير «الملك لير» من تشاؤم .

قلنا إن راسل كان فى شبابه متمردا رومانسيا . ولكن تجارب الحياة جعلته يدرك أخطار هذا التمرد الرومانسى . ومنها أن مد التمرد الرومانسى قد يتمخض فى نهاية الأمر عن إنتاج الطغاة والمستبدين ومن ثم تخلى راسل عن عطفه السابق على المذهب الفوضوى . وإذا كان رجل البوليس فى مطلع حياته يمثل أداة الدولة فى الجور والقسر ، فأنه أصبح الآن يمثل فى نظره نوعا من النظام الذى لا غنى لأى مجتمع عنه (انظر كتابة «السلطة والفرد» ١٩٤٩ الذى يشرح وجهة نظره فى هذا الموضوع باستفاضه) ورغم أنه يصرح فى كتاب «راسل يعبر عما يدور فى خلده» (١٩٦٠) بضرورة استخدام

العنف فى بعض الحالات لتغيير نظم اجتماعية فاسدة ، فانه ، بوجه عام ، يميل الآن إلى الحلول الليبرالية التقليدية القائمة على التسامح والحلول الوسط . وهو ينظر فى ألم ممض آلى انكماش الحريات فى العالم المعاصر ، ويهوله أن يرى فيه من الشواهد ما يؤيد صدق بنؤه «جورج أورويل» المظلمة التي صورها فى روايته التى تنذر بالشر «العالم عام ١٩٨٤» .

راسل الناقد الأدبى

عرف برتراند رسل فى حياته المديدة عددا كبيرا من مشاهير الأدب الانجليزى الحديث معرفة شخصية . وسجل فى كتابه الممتع «صور من الذاكرة» انطباعاته عن هؤلاء الأدباء ورأيه فى انتاجهم الأدبى وسلوكهم الشخصى على حد سواء .

يقول «برتراند رسل» إنه قابل «هـ . ج . ويلز» لأول مرة فى عام ١٩٠٢ فى جمعية صغيرة أنشأها «سيدنى ويب» رائد الفابية بهدف تبادل الآراء والمناقشة . وأصبح من الواضح أن وشائج التعاطف السياسى تربط بين رسل و «ويلز» منذ البداية ، فهما يشتركان فى الايمان بالاشتراكية ، ويرفضان الاستعمار ، ويمقتان جنوح العالم نحو الحرب العالمية الأولي . ولكن الخلاف بدأ يدب بينهما عندما أصدر «هـ . ج . ويلز» قصة بعنوان «فى أيام المذنب» تنبأ فيها بانتصار العقل والاتزان على جنون الحرب ، كما تنبأ باستغراق كل إنسان فى حب منطلق من كافة القيود . وتعرض «ويلز» بسبب هذه القصة لهجوم شنته الصحافة الانجليزية عليه نظرا لما رأته فيها من دفاع عن الحب الطليق . فبدأ «ويلز» فى التراجع ، ورد بنوع من الحرارة والتحمس أنه لم يدافع عن الحب الطليق ، وأن أحداث القصة لاتعدو أن تكون تنبؤا بما يمكن حدوثه دون استحسان أو استهجان لها . ولم يرق هذا التراجع من جانب «ويلز» فى عين رسل واعتبره تلاعبا واحتيالا . وسأله رسل لماذا دافع عن الحب بلا قيود فى بادىء الأمر ثم تراجع بعد ذلك . فأجاب «ويلز» بقوله أنه لم يكن قد اقتصد بمد من حقوق التأليف والنشر ما يمكنه من الاستقلال فى معاشه .

واستاء راسل حينذاك من رد «ويلز» النفعى . ولكن يرى الآن أن استياءه لم يكن له ما يبرره ، وأنه كان متشددا فى موقفة بلا داع . ومما زاد منْ اتساع الهوة بين رسل و «ويلز» أن «ويلز» غير موقفه وأصبح يؤيد بلاده فى الحرب العالمية الأولى تأييدا بالغ التحمس ضد ما أسماه «العسكرية البروسية» . ولكن علاقة راسل به أصبحت أكثر ودا بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها . ويعترف راسل بإعجابه بكتاب «ويلز» «مجمل التاريخ» وخاصة الأجزاء الأولى منه ، كما يعترف بتفوق هذا الأديب الملحوظ فى تصور سلوك الجماهير الجماعى عندما تواجه ظروفا غير عادية كما هو الحال مثلا فى «حرب العوالم» . ولكن راسل يعيب عليه حرصه على استرضاء عامة الناس ، وتنازله عما يؤمن به أحيانا خوفا من الصيحات الشعبية العالية ، وأنه كان يجد أن إعراض الناس عنه أمر لا يطاق .

وكانت معرفة راسل بـ «د . هـ لورنس» قصيرة مضطربة دامت فى مجموعها ما يقرب من عام . أحب راسل فى «لورنس» عواطفه المتقدة ، كما أحب فيه الإيمان بحاجة العالم إلى شىء جوهرى للغاية لإصلاح شأنه والذى جذب راسل إلى «لورنس» فى بادىء الأمر صفة ديناميكية أكيدة كانت تميزه ، فضلا عن عادته فى تحدى الافتراضات التى يقبلها الإنسان على أنها مسلمات لا يرقى إليها الشك . وكان راسل متهما بعبوديته المفرطة للعقل ، فرحب بصداقته بـ «لورنس» ، اعتقادا منه أنه من الجائز أن تعطيه هذه الصداقة جرعة منعشة من اللاعقل . ولكن النزاع دب بينهما بسبب خلافهما الجوهرى فى الفكر والسياسة . فقد كان راسل شديد الإيمان بالديمواقراطية فى حين أن «لورنس» – فى رأية – استولد كل الفلسفة الفاشية قبل أن يفكر رجال السياسة فيها . ويقول راسل عن تأكيد «لورنس» للجنس :

«يرجع تأكيده المفرط للجنس إلى أنه فى الجنس وحده كان مضطرا للاعتراف بأنه لم يكن الإنسان الوحيد الموجود فى الكون . ولأن هذا الاعتراف كان أليما على نفسه ، دعاه هذا لأن يرى أن العلاقات الجنسية قتال دائم يسعى كل جانب فيه إلى تدمير الجانب الآخر .

وقابل راسل «جورج برنارد شو» لأول مرة فى عام ١٨٩٦ فى مؤتمر اشتراكى عقد فى لندن . وكان معجبا بمقال «شو» الذى دافع فيه عن الاشتراكية الفابية التى وقت الاشتراكية البريطانية من تأثير ماركس . كان «شو» حتى ذلك الوقت خجولا ، يتسلح بنكاته اللاذعة كنوع من الدفاع ضد السخرية والهجوم الذى يتوقعه . ويرى رسل أن هجوم «شو» على الزيف والنفاق فى العصر الفيكتورى كان مفيدا كما أنه كان ممتعا ، وأن الانجليز يدينون له بالفضل والعرفان ما فى هذا شك . ويبرز راسل لنا أثر «صامويل بتلر» البالغ فيه . ويذكر فى هذا الشأن أنه قابل «شو» فى مأدبة أقيمت لتكريم «صامويل بتلر» ، وعلم راسل لدهشته أن «شو» كان يقبل كل كلمة فاه بها «بتلر» على أنها انجيل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، كما يقبل النظريات التى قالها على سبيل المزاح لا أكثر على أنها حقائق لا يرقى إليها الشك . وأخذ «شو» عن «بتلر» كراهيته لـ «داروين» . ويعيب راسل على «شو» كذلك احتقاره للعلم ، ومداهنته الحكومة السوفيتية فى الفترة الأخيرة من حياته ، وتبنيه للماركسية بشكل كامل منتظم .

وتعرف برتراند راسل إلى «جوزيف كونراد» فى سبتمبر عام ١٩١٣ وكان راسل معجبا بكتبه ويرغب فى التعرف به . ولكنه لم يجرؤ على ذلك حتى قدمته صديقته «الليدى أوتولين موريل» إليه .. واندهش رسل عندما اكتشف أن «كونراد» يتكلم الانجليزية فى لكنة أعجمية واضحة للغاية ، ولكنه كان فى مسلكه سيداً بولنديا مهذبا أرستقراطيا حتى أطراف أصابعه . ونشأت بين راسل و «كونراد» أجمل علاقة إنسانية يمكن أن تنشأ بين صديقين . هذا على الرغم من اختلافهما الجذرى فى شئون الفكر والسياسة . فقد كان «كونراد» أخلاقيا متشددا للغاية ، كما أنه كان من الناحية السياسية محافظا لا يحمل أقل عطف على الثورات . وكان راسل معجبا بروايته «قلب الظلام» التى تبلور فلسفته فى الحياة والتى تبين إدراكه الكامل للصور المختلفة التى يتخذها جنون العواطف المشبوبة التى يتعرض لها الإنسان ، الأمر الذى جعله يؤمن

إيمانا كلاسيكيا عميقا بأهمية النظام . ولم يكن «كونراد» يحفل بالسياسة اللهم إلا تصريحه بحب انجلترا وكراهيته لروسيا القيصيرية والشيوعية على حد سواء ، وهو الموقف البولندى التقليدى على أية حال . ولكنه يحفل بتصوير الروح الانسانية الفردة وهى تجابه عدم اكتراث الطبيعة وتجابه غالبا عداوة الانسان ، كما تتعرض للصراعات الداخلية مع الأهواء ، الخير منها والشرير ، التى تقود نحو الدمار . وكانت مآسى الوحشة والوحدة تشغل جانبا كبيرا من تفكيره وشعوره . ويقول راسل فى هذا الصدد:

«لكم عجبت فى بعض الأحيان لمقدار ما كان «كونراد» نفسه يشعر به وهو يعيش بين الانجليز من وحشه يحس بها هذا الرجل والتى كان يكتبها بجهد أرادى صارم» .

وبالرغم من إيمان «كونراد» بالنظام ، فإنه يرفض الشمولية التى تفرض على الانسان النظام من الخارج ، فهو يريد من هذا النظام أن يكون نابعا من دخيلته .

راسل الكاتب القصصى

لاشك أن الدهشة ستصيبنا إذا علمنا أن برتراند راسل بدأ يتجه إلى التأليف القصصى فى سن الثمانين . فقد أصدر مجموعتين من القصص القصيرة الأولى بعنوان «أبليس فى الضواحى وقصص أخرى» (١٩٥٣) ، والثانية بعنوان «أحلام مزعجة» (١٩٥٤) .

وسأستبعد المجموعة القصصية الثانية من دائرة البحث والاستقصاء لأنها ليست قصصا بالمعنى المعروف . فمعظمها تصور يكاد أن يكون مطابقا للواقع للأحلام المزعجة التى يحتمل أن تقض مضجع بعض مشاهير العالم أمثال : «ستالين» و«ايزنهاور» و «دين أتشون» . ولهذا ، فانى سأقصر حديثى على ما أعتبره أبرز قصتين فى المجموعة الأولى .

يذكر رسل فى المقدمة القصيرة للغاية التى صدر بها «إبليس فى الضواحى وقصص أخرى» أن دهشته من كتابته هذه القصص لا تقل عن دهشة القارىء نفسه بحال من الأحوال . ويضيف أنه شعر وهو فى الثمانين أن حافزا قويا لا سبيل إلى مغالبته يدفعه إلى كتابتها ويقرر راسل أنه وجد متعة فى تأليفها ، ولكنه غير موقن من قيمتها الفنية . ويعلق بأسلوبه الهازل المداعب الذى تعودناه أن أتجاهه نحو التأليف القصصى فى مثل هذه السن المتأخرة قد يبدو غريبا ، ولكنه ليس منقطع النظير تماما . فقد كان الفيلسوف «هوبز» أكبر منه عمرا عندما كتب سيرته الذاتية بالشعر اللاتينى فى أوزان مكونة من ست تفعيلات .

تقع أحداث القصة الرئيسية فى هذه المجموعة التى تحمل عنوان «إبليس فى الضواحى : أو الفظاعات المصنوعة هنا» . فى ضاحية وهمية اسمها «مورت ليك» وتصور هذه القصة الأعمال الشيطانية التى يقوم بها طبيب نفسانى شرير اسمه «الدكتور ميردوك مالاكو» . ويروى لنا أحداثها رجل من سكان هذه الضاحية . ويقرأ الراوى أثناء سيره اللافتة النحاسية التى يضعها الدكتور «مالاكو» خارج عيادته ، فتعقد الدهشة لسانه لما فيها من غرابة ، فاللافتة تدعو الناس إلى استشارة هذا الطبيب من أجل الحصول على الفظائع التى يصنعها فى عيادته . وتشخيص هذا الطبيب الشيطان للداء الذى يدهم سكان الضواحى بسيط ومعقول . فهو يدرك مقدار ما يكتنف حياة الضواحى من رتابة وملل قاتلين . وعلاجه لهذا الداء لا يقل فى بساطته ومعقوليته عن تشخيصه له . فهو يتعهد لزبائنه بأن يجعل حياتهم أكثر إثارة ، وأن يبدد ما يعتريها من أسن ورتابة .

وفى يوم من الأيام يرى الراوى واحدا من جيرانه وهو «المستر أبركرومبى» خارجا من عيادة الطبيب شاحب الوجه زائغ البصر متعثر الخطوات ، فيندهش لحالته أبلغ الدهشة . ولكن الدهشة تستولى عليه تماما عندما يرى ثلاثة آخرين من جيرانه هم

«المستر بوشامب» و «المستر كارت رأيت» ، و «مسز اليركر» يخرجون من عيادة الدكتور «مالاكو» فى مثل هذه الحالة .

وتستولى على الراوى مشاعر النخوة وحسن الجوار ، فيقتحم عيادة الدكتور «مالاكو» ويطلب منه تفسيرا لما يحدث لجيرانه المساكين . فيرفض الطبيب الشيطان أن يدلى بشىء حرصا من جانبه على صيانة أسرار زبائنه .

وأخيرا ، يكتشف الراوى حقيقة ما حدث لضحايا الدكتور «مالاكو» الأربعة . ويعرف أن «المستر أبركرومبى» ، الذى اشتهر بنزاهته وسمعته الطيبة طيلة حياته ، قد سرق مبلغا كبيرا من المال من البنك الذى يعمل به ، وأنه حاول بخبث ودناءة أن يلقى المسئولية على كاهل واحد من مرء وسيه . ويعترف «أبركرومبى» أن الدكتور «مالاكو» الشيطان هو الذى حرضه على اختلاس أموال البنك ، وأقنعه بأنه يستطيع بشىء من الدهاء أن يفلت من قبضه العدالة .

واستطاع الدكتور «مالاكو» كذلك أن يحول حياة رجل آخر هو «بوشامب» من طريق الفضيلة إلى طريق الرذيلة . كان «بوشامب» واعظا يدعو شباب «مورت ليك» إلى العفة والطهر ، فأغراه «مالاكو» بممارسة الحب . ويقع «بوشامب» فى غرام أرملة جميلة لعوب لم تكن تحبه حقا ، ولكنها تبغى مجرد التلهى والتسلية . ويبيع هذا الرجل روحه للشيطان من أجل الحصول على مال وفير ينفقه على عشيقته . واكتشف البوليس أن هذا الواعظ الفاضل ، الذى لا يكف عن اقتطاف الآيات الدينية ، يروج للأدب المكشوف عن طريق وضع إشارات عند بعض الآيات الواردة فى الكتاب المقدس الذى يتولى توزيعه بين الشباب تنصحهم بالرجوع إلى بعض الناشرين إذا كانوا يرغبون فى المزيد من الشرح والايضاح . فعندما يذكر الكتاب المقدس مثلا أن يهوذا يطلب من خدامه أن يبحثوا عن المرأة الساقطة خارج باب المدينة ، يضع هذا الواعظ مذكرة مفادها أنه ليس هناك شك فى أن معظم قراء الكتاب المقدس لا يدركون معنى المرأة الساقطة ، وأن الناشر الفلانى على استعداد لتوضيح المعنى المشار إليه عند الطلب .

وعندما يكشف البوليس النقاب عن جرائم «بوشامب» الأخلاقية لا يجد مفرا سوى التخلص من حياته .

ويعمل «المستر كارت رايت» ضحية الدكتور «مالاكو» الثالثة مصورا فوتوغرافيا ناجحا تعاونه فى عمله عشيقته الجميلة . ويجد هذا المصور أن الضرائب تستنفد جانباً كبيرا من ايراده الذى يحتاج إليه للانفاق عن سعة على ملذاته . ويفكر «كارت رايت» في استخدام عشيقته وموهبته الفوتوغرافية فى توريط علية القوم الأثرياء فى أوضاع غرامية مشينة ، ثم يلتقط لهم صورا فيها ليشهرها فى وجوههم كسلاح يبتز به المال . ويحتال «كارت رايت» على أحد الاساقفة على هذا النحو ، فيدبر له هذا الأسقف «ورطة» مماثلة . ويوجه إليه دعوة مزورة لحضور حفل باسم السفارة الروسية . وفى أثناء الحفل يتقدم أحد الحاضرين من المصور ويعطيه مظروفا كبيرا كتب عليه من الخارج مبلغ كبير من المال . ويلتقط الأسقف للمصور صورة فوتوغرافية فى هذا الموقف الحرج ، ويشهرها كسلاح ضده ، ويطلب منه نظير سكوته عليه أن يقدم إليه تسعين فى المائة من ايراده غير المشروع لانفاقه فى وجوه البر . وبهذا تخفق استشارة الدكتور «مالاكو» له باتباع هذا الأسلوب الدنىء فى جمع المال .

أما «مسز اليركر» فقد أغراها «الدكتور مالاكو» بأن تخون زوجها المخترع مع المنافس الوحيد له الذى يستغل عشيقته فى التخلص نهائيا من غريمه . وعندما تفتح هذه المرأة عينها على مقدار غفلتها وخستها معا تصيبها لوثة من جنون .

وفى بأسه الغامر من هذا العالم الشرير ، يخترع الراوى جهازا علميا من شأنه أن يجعل ماء البحار والمحيطات يغلى ، ويقضى على كل أثر للحياة على الأرض ثم يتوجه إلى عيادة الدكتور «مالاكو» ليعلن له نبأ هذا الاختراع الجديد . وعندما يرى أن الدكتور الشيطان يستقبل بالرضا والابتهاج بشرى دمار العالم ، يغير الراوى رأيه

ويعدل عن خطته ، ويقرر استمرار الحياة على الأرض حتى يفوت على إبليس الضواحى أغراضه الشريرة .

يجدر بنا ، قبل كل شىء ، أن نذكر أن أسلوب راسل النثرى لا يخونه أبدا ، فقصة «إبليس الضواحى» ، شأنها فى ذلك شأن بقية قصص المجموعة ، مكتوبة بلغة بسيطة جميلة مسلية . ويستطيع قارىء هذه القصة أن يتتبع بصمات أصابع مؤلفها كمفكر . ففيها نطالع شيئا من الاستخفاف بالدين كالذى تعودنا قراءته فى كتبه ومقالاته وأهم من هذا أن راسل المفكر يرى أن العقل البشرى ، بالرغم من إتزانه وسلامته المظهريين ، لايعدو أن يكون غلالة رقيقة تخفى وراءها براكين اللاعقل والجنون . وإذا طبقنا هذا على القصة ، يتضح لنا أن الدكتور «مالاكو» ، إبليس الضواحى ، يكمن فى ضحاياه وليس خارجا عنهم . ويفسر لنا هذا السبب فى استجابة «أبركرومبى» ، و«موشامب» ، و «كارت رايت» ، و «مسز اليركر» لاغرائه . وليس غريبا أن يتأثر راسل القصصى براسل المفكر . فمن الطبيعى أن تترك شخصية الكاتب بصماتها على كل ما يخطه قلمه . ولكنه ينبغى علينا احقاقا للحق أن تؤكد أن هذا الأثر لا يعدو أن يكون عرضا . وأنه لشىء يدعو إلى الاعجاب حقا .

فى مدح الكسل



لقد درجت ، شأنى فى ذلك شأن معظم الجيل الذى انتمى إليه ، على المثل القائل بأن «اليد البطالة نجسة» ، ولما كنت طفلا يتحلى بأسمى الفضائل ، كنت أصدق كل ما كان يقال لى .. واكتسبت ضميرا مازال يدفعنى إلى العمل الشاق حتى اللحظة الراهنة .. ولكن على الرغم من أن ضميرى لا يزال يسيطر على «أفعالى» إلا أن «آرائى» قد اجتاحتها ثورة .. فأنا أعتقد أن العمل الذى ينجز فى العالم يزيد عما ينبغى إنجازه بكثير ، وأن ثمة ضررا جسيما ينجم عن الإيمان بفضيلة العمل ، كما أنى أعتقد أن ما تحتاج البلاد الصناعية الحديثة إليه من تبشير يختلف تماما عن نوع التبشير الذى ألفته .. كل إنسان يعرف قصة المسافر فى نابولى الذى رأى أثنى عشر شحاذا مستلقين فى الشمس (كان هذا قبل أيام موسولينى) والذى قدم ليرة إلى أكسلهم طرأ فهب أحد عشر من رقدتهم يطالب كل منهم بها ، فما كان من المسافر إلا أنه نفح الليرة الشحاذ الثانى عشر .. لقد كان هذا المسافر مصيبا فيما فعل .. ولكن الكسل فى البلاد التى لا تستمتع بشمس البحر الأبيض الساطعة أكثر مشقة ولابد من دعاية ضخمة لإرساء قواعدة .. وأملى بعد قراءة الصفحات التالية أن يبدأ قادة جمعية الشبان المسيحيين حملة لإغراء الشباب الطيب بألا يفعل شيئا .. وإذا تم لى ما أبغى ، لن تكون حياتى قد ضاعت سدى .

وقبل أن أعرض آرائى الخاصة مدافعا عن الكسل يتحتم على أن أدحض رأيا لا يمكن لى أن أقبله .. فعندما يخطر لانسان لديه من وسائل العيش ما يكفيه أن يشتغل بعمل من أعمال الحياة اليومية كالتدريس فى المدارس أو الآلة الكاتبة فإنه يقال لهذا الانسان أن مثل هذا التصرف من جانبه سيحرم آخرين من أن تصل لقمة العيش إلى أفواههم .. ولهذا فهو تصرف شرير .. ولو أن هذا الرأى كان صحيحا لكان من الضرورى أن نصبح كسالى فحسب حتى تمتلأ أفواهنا جميعا بالخبز .. والأمر الذى يغيب عن أذهان من يزعمون مثل هذه المزاعم هو أن الانسان عادة ينفق ما يربح وأنه فى إنفاقه لما يربح يتيح لغيره فرصة العمل .. وما دام الانسان ينفق دخله فهو يوفر لقمة العيش للآخرين بالقدر الذى ينتزعها به من أفواههم .. والمجرم الحقيقى من وجهة النظر هذه هو الإنسان الذى يدخر ، فمن الواضح أنه لن يتيح فرص العمل لاحد لو

أنه اكتفى بمجرد حفظ مدخراته فى جورب كما يفعل الفلاح الفرنسى فى الامثال الشائعة .. أما إذا استثمر مدخراته فسيكون جرمه أقل وضوحا وتنشأ بذلك حالات مختلفة ..

من أكثر الأمور شيوعا أن يقرض الإنسان مدخراته لحكومة ما . وبالنظر إلى أن أكبر جانب من المصروفات العامة فى معظم الحكومات الراقية يتلخص إما فى دفع نفقات حروب قديمة أو الاستعداد لحروب جديدة فان الانسان الذى يقرض ماله للحكومة هو فى نفس وضع الرجال الاشرار فى مسرحيات شيكسبير الذين يستأجرون القتلة .. والنتيجة النهائية لعادات هذا الانسان الاقتصادية هى زيادة القوات المسلحة للدولة التى يقرضها مدخراته .. ومن الواضح أنه من الاصوب لو أنه أنفق المال حتى لو كان على الشراب والميسر .

ولكن البعض سيرد على محتجا بأن الحالة تختلف تماما إذا استثمرت هذه المدخرات فى المشروعات الصناعية .. قد يمكن الأخذ بهذا الرد عندما تنجح مثل هذه المشروعات وتنتج شيئا مفيدا .. ولكن لا سبيل لأحد أن ينكر أن غالبية هذه المشروعات ينتهى الأمر بها إلى الفشل .. وهذا معناه أن قدرا كبيرا من الجهد البشرى الذى كان يمكن تخصيصه لإنتاج شىء يمكن الاستمتاع به يبذل فى إنتاج آلات يقدر لها عقب إنتاجها أن تظل عاطلة لا يجنى أحد من ورائها نفعا .. وعلى هذا فالانسان الذى يستثمر أمواله فى مشروع يفضى إلى الافلاس يضر الآخرين كما يضر بنفسه .. ولو أنه أنفق ماله مثلا فى إقامة الحفلات لاصدقائه لجنوا – كما نأمل – من ذلك لذة ولأستمتع كذلك سائر الناس الذين ينتفعون من ورائه أمثال الجزار والخباز وتاجر الخمور .. ولكنه لو أنفق هذا المال – لنقل مثلا – على تركيب قضبان حديدية لعربات فى مكان ما حيث يثبت أن الحاجة لهذه العربات معدومة فأنه بذلك يحول كتلة من الجهد فى مجرى ليس من شأنه أن يجلب المتعة لأحد .. ورغم ذلك فإنه يعتبر ضحية حظ عاثر لايستأهله إذا ما أصبح فقيرا من جراء فشل مشروع استثماره بينما أن المسرف المرح الذى ينفق ماله فيما يعود على الآخرين بالخير والمنفعة يعامل بازدراء كشخص مغفل مستخف تافه .

كل هذا مبدئى فقط .. وانا أريد أن أقول فى جدية تامة أن العالم الحديث يصيبه الكثير من الأذى نتيجة الاعتقاد فى فضيلة العمل ، وأن السبيل إلى السعادة والرفاهية ينحصر فى الإقلال المنظم للعمل .

وبادىء كل شىء . ما العمل ؟ العمل نوعان : أولهما تغيير وضع المادة على سطح الأرض أو بالقرب منه بالنسبة لمادة أخرى مثيلتها .. وثانيهما القول للناس الآخرين باحداث هذا التغيير .. والنوع الأول غير بهيج واتجاه غير مدر للربح ، أما النوع الثانى فبهيج ويدر ربحا طائلا ، والنوع الثانى من العمل مطاط بشكل لا حد له فليس هناك من يصدرون الاوامر فحسب ، بل هناك أيضا من يقومون باسداء النصح بشأن الاوامر التى ينبغى اصدارها . وفى العادة تصدر هيئتان منظمتان من الناس نوعين متباينين من النصيحة في وقت واحد .. وهذا هو ما يسمى بالسياسة .. والمهارة التى يتطلبها هذا النوع من العمل لا تنحصر فى الألمام بالموضوعات التى تسدى النصائح بصددها بل باتقان فن الحديث والكتابة لحث الناس واستثارتهم ، أى باتقان فن الاعلان .

وهناك طائفة ثالثة من الرجال فى أوربا بأسرها وأن لم يكن لها وجود فى أمريكا تنعم باحترام أكبر من أى من الطبقتين العاملتين السالف ذكرهما . هناك رجال يتسنى لهم بحكم ملكيتهم للأرض أن يجعلوا الآخرين يدفعون ثمن التفضل بالسماح لهم بالحياة والعمل .. وملاك الارض هؤلاء كسالى خاملون ولذلك قد ينتظر منى أن أمتدحهم ، ولكن كسلهم لسوء الحظ ما كان ليتوفر لولا جهد الآخرين وكدحهم .. وحقيقة الحال أن رغبتهم فى الكسل الحلو هى من الناحية التاريخية منبع الايمان العام بقداسة العمل ، وآخر شىء لا توده هذه الطائفة إطلاقا هو أن يحذوا الآخرون حذوهم .

منذ بدء الحضارة حتى الثورة الصناعية كان يمكن للرجل كقاعدة عامة أن ينتج بالعمل الشاق ما يقيم أوده وأود عائلته وما يزيد قليلا .. هذا بالرغم من أن زوجته كانت تقوم على أقل تقدير بمثل عمله المرهق ، ومن أن أطفاله كنوا يسهمون بجهدهم

عندما يشبون عن الطوق وتشتد سواعدهم .. ولم يكن الفائض القليل الذى يربو على حاجيات الكفاف يترك لاصحابه الذين يقومون بإنتاجه بل كان منْ نصيب المقاتلين والكهنة يستأثرون به . وفى أوقات المجاعات لم يكن هناك فائض .. ولكن المقاتلين والكهنة كانوا على الرغم من ذلك يضمنون لأنفسهم على أى حال ما كانوا يضمنون فى الظروف الأخرى الامر الذى أفضى إلى تضور الكثيرين من الكادحين جوعا .. واستمر هذا النظام فى روسيا حتى عام ١٩١٧[١] وما زال مستمرا فى الشرق ، كما ظل باقيا فى إنجلترا على الرغم من الثورة الصناعية أثناء الحروب النابوليونية .. ظل هذا النظام مستمرا حتى المائة عام الاخيرة حينما استولت طبقة جديدة من المنتجين على زمام السلطة وانتهى هذا النظام فى أمريكا بنشوب الثورة إلا فى الجنوب حيث استمر حتى اندلاع الحرب الاهلية . ومن الطبيعى أن يترك نظام هذا شأنه - قدر له أن يستمر كل هذه الفترة دون أن ينتهى الا قريبا جدا - أثرا عميقا فى أفكار الناس وآرائهم . وكثير من المعتقدات الخاصة بفضيلة العمل ، مما نعتبرها بديهيات لاتحتاج إلى نقاش ، مستمدة من صلب هذا النظام ، وهو نظام لا يتفق ومقتضيات العالم الحديث ؛ لأنه كان نظاما يسود المجتمعات قبل الثورة الصناعية .. ووسائل العلم الحديثة من شأنها ألا تجعل الفراغ - فى حدود - حكراً تنفرد به طبقات ضئيلة العدد وتنعم بامتيازاته بل تجعل منه حقا يعطى بالتساوى لافراد المجتمع .. وأخلاقيات العمل هى أخلاقيات العبيد ولا حاجة للعالم الحديث إلى نظام العبيد ..

ومن الجلى أن الفلاحين فى المجتمعات البدائية لو تركوا لشأنهم لما فرطوا فى الفائض الضئيل من إنتاجهم الذى كان المقاتلون والكهنة يستأثرون به ولكانوا يؤثرون على ذلك إما خفض إنتاجهم أو زيادة استهلاكهم .. كانت القوة المجردة فى بادىء الامر تضطرهم إلى إنتاج الفائض والنزول عنه . ولكنه وجد بالتدريج على أية حال أنه من الممكن إغراء كثرتهم بقبول أخلاق من شأنها أن تجعل الواجب عليهم أن يكدوا

(١) منذ ذلك الحين نجح أعضاء الحزب الشيوعى فى الحصول على امتيازات المقاتلين والكهنة .

ويكدحوا رغم أن بطون الآخرين كانت تتخم فى استرخاء وكسل بجانب من كدحهم . وبهذا الاسلوب الجديد قلت كمية الارغام المطلوبة كما انخفضت تكاليف الحكم . وحتى يومنا هذا سيصاب ٩٩٪ من الكادحين البريطانيين بالدهشة الحقة لو اقترح إنسان أنه لا ينبغى للملك أن يحصل على دخل يزيد عن دخل الرجل العادى . وفكرة الواجب من الناحية التاريخية كانت أداة استغلها أصحاب السلطان لاغراء الآخرين على قضاء مصالح أسيادهم الخاصة ، لا مصالحهم هم . ويعمل أصحاب السلطان بطبيعة الحال على إخفاء هذه الحقيقة عن أنفسهم ، وذلك بأن يفلحوا فى إقناع أنفسهم بأن مصالحهم ومصالح الانسانية عامة شىء واحد لا تعارض فيه . وهذه هى عين الحقيقة فى بعض الاحيان . فأصحاب العبيد فى أثينا مثلا كانوا يسخرون جانبا من فراغهم فى إضافة شىء دائم إلى الحضارة . هذه الاضافة إلى صرح الحضارة لم تكن لتوجد تحت ظل نظام اقتصادى تسوده العدالة . فالفراغ ضرورة للحضارة . وفى الازمنة السالفة كان الفراغ الذى تنعم به الاقلية ممكنا بفضل كد الاكثرية وكدحها . وكان لكدحها قيمة لا لان العمل شىء حسن بل لأن الفراغ شىء حسن . ويمكن عن طريق وسائل العلم الحديثة توزيع الفراغ توزيعا عادلا دون اضرار بالحضارة .

وقد جعلت وسائل العلم الحديثة فى الامكان تخفيض قدر الجهد المطلوب لكى يحصل كل إنسان على ضرورات الحياة تخفيضا هائلا وأصبح هذا واضحا أثناء الحرب ، ففى هذا الوقت تم سحب كل رجال القوات المسلحة وكل الرجال والنساء العاملين فى إنتاج الذخيرة والمشتغلين بالتجسس وبدعاية الحرب أو بمكاتب الحكومة التى لها علاقة بالحرب - كل هؤلاء تم سحبهم من وظائفهم الانتاجية . ورغم هذا فقد كان مستوى الرفاهية المادية بين العاملين غير الفنيين فى صفوف الحلفاء مرتفعا عن ذى قبل أو بعد ذلك .. (وقد أخفت السياسة المالية مدلول هذه الحقيقة فقد ظهر من عقد القروض كما لو كان المستقبل يغذى الحاضر ، ولكن هذا بطبيعة الحال أمر مستحيل الوقوع فالانسان لا يستطيع أن يأكل رغيفا من الخبز لم يوجد بعد) . لقد

أثبتت الحرب بشكل قاطع أنه من الممكن عن طريق التنظيم العلمي للإنتاج الاحتفاظ لاهل العصر الحديث برغد نسبى وذلك بفضل جهد جانب ضئيل من القدرة العاملة فى عالمنا الحديث .. ولو أن التنظيم العلمى الذى أوجدته الحرب ليتفرغ الرجال للقتال ، ولصنع الذخيرة قد احتفظ به بعد نهاية الحرب ، ولو أن ساعات العمل خفضت إلى أربع ساعات ، لسار كل شيء على ما يرام ، ولكن بدلا من ذلك عادت إلي العالم فوضاه القديمة وأصبح المطلوبون للعمل يعملون ساعات طوالا متصلة وترك الباقون ليتضوروا جوعا بسبب تعطلهم عن العمل . لماذا ؟ لأن العمل واجب ولأن الانسان لا ينبغى له أن يحصل على أجر يتناسب مع ما ينتجه بل يتناسب مع فضيلته كما هى ممثلة فى جده واجتهاده . وهذه هى أخلاق دولة العبيد مطبقة فى ظروف تختلف تماما عن ظروف نشأتها . فلا غرو إذن إذا كانت النتيجة محزنة . ولنأخذ مثالا ، لنفرض أن عددا معينا من الناس فى وقت ما يشتغلون فى انتاج الدبابيس . هذا العدد يقوم بصناعة ما يحتاج إليه العالم من دبابيس ، ويعمل (قل) ثمانى ساعات يوميا . فيجيء شخص ما ويستحدث اختراعا من شأنه أن ينتج نفس هذا العدد من الناس ضعف هذا العدد من الدبابيس . ولكن الدبابيس رخيصة الثمن أصلا مما يجعل من المستبعد جدا شراء عدد أكبر منها بسعر أقل . فى عالم يسوده العقل ، سيعمل كان إنسان يشتغل بصناعة الدبابيس أربع ساعات بدلا من ثمان ، وتجرى الامور على ما كانت عليه . ولكن العالم الحالى ينظر إلى هذا الحل على اعتبار أنه محط بالقيم والاخلاق . ولهذا مازال الرجال يعملون ثمانى ساعات وانتاج الدبابيس يزيد عن الحاجة بكثير ، وينتهى الامر بموظفى الاموال إلى الافلاس مما يفضى إلى تشريد نصف عدد الرجال المشتغلين بصناعة الدبابيس وتعطلهم عن العمل . وفى نهاية الامر ، تتوفر لدينا نفس كمية الفراغ التى كانت ستتوفر لو اتبعنا الخطة الثانية .. ولكنه فراغ تشوبه البطالة التامة التى تصيب نصف عدد العاملين بينما يرزح كاهل النصف الآخر تحت ثقل العمل المرهق . ومن المؤكد أن باتباع هذا الاسلوب سيسبب الفراغ الذى لا محيص

عنه شقا، فى كل مكان بدلا من أن يكون مصدرا للسعادة عميما . فهل من الممكن أن نتصور جنونا أكثر من هذا .. ؟

والفكرة التى تنادى بأن يتمتع الفقراء بالفراغ كانت وماتزال دوما مثار دهشة الاغنياء وذهولهم . وفى انجلترا بلغت ساعات العمل اليومى العادى للرجل فى أوائل القرن التاسع عشر خمس عشرة ساعة . كما كان الاطفال يعملون أحيانا مثل هذا القدر من الساعات . وكان من الشائع جدا أن يعمل الاطفال أثنتى عشرة ساعة . وعندما اقترحت هيئات تحرص على التدخل فيما لا يعنيها أن ساعات العمل هذه ربما كانت أطول مما ينبغى ، كان الرد على هذا أن العمل يقى الكبار من الخمر كما يحمى الصغار من الشر . وفى طفولتى ، بعد أن نال عمال المدينة حقهم الانتخابى بوقت قصير أقيمت بحكم القانون بعض العطلات العامة احتفاء بهذه الذكرى مما أثار سخط الطبقات العليا . وأنا أذكر أنى سمعت حينذاك دوقة متقدمة فى العمر تقول فى هذا الصدد : «ما عسى الفقراء أن يفعلوا بالعطلات ؟ ينبغى عليهم أن يعملوا ..» والناس الان أقل صراحة عن ذى قبل ولكن هذا الشعور مازال سائدا وهو مصدر الكثير من اضطرابنا الاقتصادى .

دعنا نفكر برهة فى أخلاقيات العمل بصراحة دون التجاء إلى الخزعبلات .. كل إنسان يستهلك بالضرورة خلال حياته مقدارا معينا من نتاج الجهد البشرى . وبفرض أن العمل شىء كريه فمن الظلم أن يستهلك أنسان أكثر مما ينتج وقد يقوم بطبيعة الحال بأداء خدمات بدلا من إنتاج السلع ولكنه ملزم بتقديم شىء مقابل مأكله ومسكنه . وفى هذه الحدود ، وفى هذه الحدود فقط يجب علينا الاعتراف بواجب العمل .

لن أتحدث طويلا عن الحقيقة التى تتخلص فى أن عددا كبيرا من الناس فى المجتمعات الحديثة باستثناء الاتحاد السوفييتى يعمد إلى التهرب حتى من الحد الادنى للعمل وأعنى بالذات كل الذين يرثون المال أو يتزوجون طمعا فيه . وأنا لا أعتقد أن

السماح لهؤلاء الناس بالكسل يكاد يصل فى ضرره ما تصل إليه مطالبة الكادحين فى سبيل الرزق أن يكدوا أو يتضوروا جوعا .

ولو أن الكادح فى سبيل الرزق عمل مدة أربع ساعات يوميا لكان هناك ما يكفى كل إنسان ، ولما كانت هناك بطالة – هذا لو افترضنا وجود جانب من التنظيم المعقول المعتدل للغاية . هذه الفكرة تذهل الاغنياء لأنهم مقتنعون بأن الفقراء لن يعرفوا كيف يستغلون كل هذا الفراغ . وفى أمريكا غالبا ما يعمل الناس ساعات طوالا حتى بعد أن يغدوا أثرياء . هؤلاء الناس بطبيعة الامر كارهون لفكرة توفير الفراغ للكادحين فى سبيل الرزق إلا على اعتبار أنه نتيجة متجهمة للبطالة ، وهم فى الحقيقة يكرهون الفراغ حتى لابنائهم . والغريب فى الأمر أنهم لا يكترثون بكون زوجاتهم وبناتهم لايقمن يعمل شىء على الاطلاق بينما هم يتمنون لابنائهم العمل فى كد واجتهاد . الغريب أن الاعجاب المتعالى نحو الفراغ والكسل الذى يمتد إلى كل من الجنسين فى المجتمع الإرستقراطى مقصور فى المجتمع الذى يسير دفته الاثرياء (البلوتوقراطية) على النساء ولكن هذا لا يتفق على أية صورة مع منطق العقل السديد .

يجب الإقرار بأن الاستغلال الحكيم للفراغ هو نتاج المدنية والتعليم وأن الإنسان الذى اعتاد على العمل ساعات طويلة يصيبه الملل لو أنه أصبح متعطلا بين يوم وليلة . ولكن بدون جانب كبير من الفراغ يجد الانسان نفسه محروما من الكثير من أطاييب هذه الحياة . لم يعد هناك داع لكى يعانى غالبية الناس من هذا الحرمان . والتقشف السخيف الذى يحمل طابع التضحية هو الذى يجعلنا عادة نستمر فى الاصرار على العمل بكميات ضخمة رغم أن الحاجة إليها لم تعد قائمة .

ورغم أن هناك تباينا تاما بين المذهب الجديد الذى يسود حكومة روسيا وبين تعاليم الغرب التقليدية فى كثير من الامور ، إلا أن هناك بعض الاوضاع القديمة التى لم يطرأ عليها إطلاقا أدنى تغيير تحت ظل هذا النظام . فموقف الطبقات الحاكمة وخاصة هؤلاء الذين يقومون بالدعاية التعليمية بشأن وقار العمل يكاد يكون تمام نفس

الموقف الذى اعتادت الطبقات الحاكمة فيما مضى التبشير به لمن يطلق عليهم اسم «الفقراء الشرفاء» ، وفى ظل المذهب الجديد يعود إلى الظهور التبشير بالاجتهاد والاتزان والاستعداد للعمل ساعات متصلة من أجل فؤاذد تجنى فى المستقبل البعيد ، حتى الخضوع إلى السلطة يعود إلى الظهور . أضف إلى ذلك أن السلطة لا تزال تمثل إرادة حاكم الكون الذى يلقب الآن على أية حال باسمه الجديد «المادية الجدلية» .

وانتصار الطبقة العاملة فى روسيا يطابق فى بعض النواحى انتصار القائمات بالحركة النسائية فى بعض البلاد الاخرى . فقد أقر الرجال بقداسة المرأة وطهارتها لاجيال متعاقبة ، هذه القداسة التى لا تتوفر فى الرجل . وقدم الرجال العزاء للنساء على مركزهن الواطىء وعلى ضعفهن زاعمين أن القداسة أمر مرغوب فيه أكثر من القوة . ولكن القائمات بالحركات النسائية قررن أن يجتمع لهن كل من القداسة والقوة لأن الرائدات بينهن قد أمن بكل ما قاله لهن الرجال من كون الفضيلة أمر مرغوب فيه ولكنهن لم يعتقدن فيما زعمه الرجال من تفاهة السلطان السياسى . وقد حدث شىء من هذا القبيل فى روسيا بشأن العمل اليدوى . فقد ظل الاغنياء وامعاتهم لاجيال متلاحقة يكيلون الثناء على «الكد الشريف» ويمتدحون الحياة البسيطة ويدينون بدين يبشر الفقراء بأن فرصهم فى دخول ملكوت السماوات أوسع من الفرص التى تتهيأ للاغنياء ، وبوجه عام حاول هؤلاء الناس أن يدخلوا فى روع العمال اليدويين أن هناك شرفا خاصا فى تغيير وضع المادة على الارض تماما كما حاول الرجال اقناع السيدات بأنهن يحصلن على شرف خاص من عبوديتهن الجنسية .

وفى روسيا أخذت كل هذه التعاليم بشأن امتياز العمل اليدوى وتفوقه على محمل الجد مما أدى إلى تكريم العامل اليدوى أكثر من أى شخص آخر . وانبعثت ما هى فى جوهرها مناشدات بعثية وأن لم تكن هذه المناشدات تخدم الاغراض القديمة . هذه المناشدات البعثية تطلق بغرض الحصول على عمال يجابهون أشق الاخطار للقيام بأعمال ذات طابع خاص . وبذلك أصبح العمل اليدوى المثل الاعلى الذى يراود الشباب كما أصبح الاساس الذى ترتكز عليه كافة التعاليم الأخلاقية .

ومن الجائز أن يكون هذا فى الوقت الحاضر للخير . فروسيا كبلد مترامى الاطراف يزخر بالموارد الطبيعية يرنو إلي التطور ، وعليه أن يتطور باستخدام جانب ضئيل من القروض . والعمل الشاق فى مثل هذه الظروف ضرورة ومن المحتمل أن تجنى الثمار من ورائه . ولكن ما الذى سيحدث عند الوصول إلى نقطة حيث يستطيع كل إنسان أن يحيا فى رغد وراحة دون أن يعمل ساعات طوالا ؟

لدينا فى الغرب طرق شتى لعلاج هذه المشكلة . فنحن لا نبذل أية محاولة فى سبيل العدل الاقتصادى لدرجة أن أقلية صغيرة من عدد السكان ، لا يقوم الكثير منهم بعمل شيء على الاطلاق ، تحظى بنسبة كبيرة من الإنتاج . ونظرا لعدم وجود سيطرة مركزية على الإنتاج فنحن ننتج مختلف الاشياء التى لا حاجة لنا بها . ونحن نحتفظ بنسبة عالية من الطبقة الكادحة فى حالة تعطل لاننا نستطيع الاستغناء عن عملهم بجعل الآخرين يكدحون . فإذا ثبت أن كل هذه الوسائل ليست بالناجحة نلجأ إلى الحرب فنجعل جانبا من الناس يشتغلون بصنع المفرقعات الشديدة الانفجار وجانبا آخر يقوم بتفجيرها كما لو كنا أطفالا قد اكتشفوا لتوهم الصواريخ والالعاب النارية . ونحن ننجح ولكن فى عسر عن طريق شتى هذه الحيل فى أن نبقى الاعتقاد بأن قدرا كبيرا من العمل اليدوى شيء محتوم فى حياة الانسان العادى ، ماثلا فى أذهاننا .

أما فى روسيا فلا بد من حل للمشكلة بأسلوب آخر نظرا لوجود عدالة اقتصادية وسيطرة مركزية على الإنتاج أكبر . والحل الذى يتمشى مع المنطق يكون بتخفيض ساعات العمل تدريجيا حالما يستكمل كل إنسان الضرورات ووسائل الراحة الأولية . كما يقضى الحل المنطقى بالسماح لعامة الناخبين أن يقرروا فى كل مرحلة إذا كانوا يفضلون لانفسهم فراغا أكبر أم إنتاجا أكثر . ولكن بسبب تلقين مبدأ فضيلة العمل العليا يصعب علينا أن نرى كيف تستطيع السلطات أن تهدف إلى خلق جنة يسودها الفراغ العظيم والعمل القليل . ويبدو من المحتمل جدا أن تجد هذه السلطات دائما مشروعات جديدة للتضحية بالفراغ الحالى من أجل الانتاج فى المستقبل . فقد قرأت

حديثا عن خطة بارعة تقدم بها المهندسون الروس لجعل المحيط الشمالى ، والسواحل الشمالية لسيبيريا تنعم بالدف ، وذلك باقامة خزان على بحر كارا . وهو مشروع يثير الاعجاب ، ولكنه من المحتمل أن يؤدى إلى تأجيل راحة الطبقة العاملة مدى جيل تظهر فى ثناياه نبالة الكدح وسط حقول الثليج والاعاصير الثلجية فى محيط القطب الشمالى . ومثل هذا الشيء إذا تم سيكون من شأنه أن تعتبر فضيلة الكدح غاية فى حد ذاتها بدلا من كونها وسيلة إلى حالة لم تعد هناك فيها حاجة إلى مثل هذه الفضيلة .

وحقيقة الأمر أن تغيير وضع المادة ليس هو بالتأكيد غاية من غايات الحياة الإنسانية وأن كان طرف معين من هذا التغيير ضرورى لوجودنا . ولو كان تحريك المادة وتغيير وضعها هدفا فى ذاته لاعتبرنا كل عبد كادح أفضل من شكسبير وقد ضللنا السبيل فى هذا الشأن لسببين : أولهما ضرورة جعل الفقراء راضين مما دعا الاغنياء مدى آلاف السنين إلى التبشير بوقار العمل بينما هم يعملون حسابهم أن يظلوا بلا وقار فى هذا الشأن . والسبب الثانى هو اللذة الجديدة التى نستمدها من الآلات الميكانيكية التي تجعلنا نهتز ابتهاجا أمام التغيرات الذكية المذهلة التى أمكننا اجراؤها على سطح الارض . ولكن أحدا من هذين الدافعين لا يستهوى العامل الكادح فعلا . فلو سألته عن أفضل جانب فى حياته فليس من المحتمل أن يجيبك بقوله «إننى استمتع بالعمل اليدوى لأنه يجعلنى أشعر أننى أحقق أنبل واجبات الانسان ولأنى أستعذب التفكير فى القدر الهائل من التغيير الذى يستطيع الانسان أن يجريه على كوكبه .. حقيقة أن جسمى يحتاج إلى فترات استجمام وراحة لا بد وأن أشغلها بأفضل طريقة ممكنة . ولكن السعادة لاتغمرنى قط مثلما تغمرنى عندما يجيء الصباح وأعود إلى عملى الشاق الذى ينبع منه رضاى» . أنا لم أسمع عمالا يتحدثون بمثل هذه الاشياء على الاطلاق . فهم ينظرون إلى العمل كما ينبغى أن ينظر إليه كوسيلة ضرورية لكسب العيش وهم يجنون ما يستمتعون به من سعادة من وقت فراغهم .

سيقول البعض أن القليل من الفراغ شيء مستحب ألا أن الناس لن يعرفوا كيف يزجون أيام حياتهم ، لو أنهم عملوا أربع ساعات فقط من يومهم : وإذا صدق هذا القول فى العالم الحديث فهو يحمل فى طياته إدانة لحضارتنا إذ إن مثل هذا القول لم يكن يصدق على مراحل الانسانية الاولى . فقد كانت هناك فى الازمنة السالفة قدرة على الاستمتاع بالحياة فى مرح وخفة . وقد قدر لهذه القدرة على الاستمتاع بالحياة أن تكبت إلى حد ما بسبب الايمان بمذهب الكفاية ، والانسان الحديث يحلو له أن يفكر أن كل شيء يجب أن يعمل من أجل شيء آخر لا كغاية فى حد ذاته . والناس الجادون مثلا يستبشعون عادة الذهاب إلي السينما ويدينونها ويدأبون على الجهر بأنها تقود الشباب إلى الجريمة . ولكنهم ينظرون إلى كل العمل المتعلق بالانتاج السينمائى على اعتبار أنه عمل محترم لانه عمل ولانه مدر للربح . والفكرة القائلة بأن أوجه النشاط المرغوب فيها هى التى تجلب الكسب قد قلبت كل شيء رأسا على عقب . فالجزار الذى يمدك باللحوم والخباز الذى يمدك بالخبز أهل للثناء لأنهم يربحون المال من عملهم . ولكنك إذا استمتعت بالطعام الذى يمدونك به فأنت مجرد شخص تافه مستخف اللهم إلا إذا كان هدفك من تناول الطعام هو الحصول على قوة تعينك على القيام بعملك . والناس يعتبرون بشكل عام أن كسب المال خير وأن انفاق المال شر وإذا نظرنا إلى وجهى المسألة لوجدنا أن هذا مضحك . ولو أتبعنا هذا المنطق لامكننا الزعم بأن المفاتيح شيء حسن ولكن ثقوب الابواب شيء سيىء . إن أية فائدة قد تعود علينا من انتاج السلع ، لابد أن تكون مستمدة تماما من استهلاكنا لهذه السلع . والفرد فى مجتمعنا يعمل من أجل الكسب ولكن الغرض الاجتماعى من هذا العمل ينحصر فى استهلاك ما يقوم بانتاجه . إن هذه الهوة بالذات التى تفصل الفرد عن الهدف الاجتماعى للانتاج هى التى تجعل من الصعب على الناس أن يفكروا فى وضوح فى عالم كسب المال فيه هو الحافز على الاجتهاد والعمل الشاق . ونحن نفكر أكثر مما ينبغى في الانتاج ونفكر أقل مما ينبغى في الاستهلاك . ونتيجة ذلك أننا نعلق أهمية

شديدة الضآلة على المتعة والسعادة البسيطة وإننا لانحكم على الإنتاج باللذة التى يجنيها منه المستهلك .

وعندما أقترح وجوب تخفيض ساعات العمل إلى أربع ساعات فأنا لا أقصد أن أشير ملمحا إلى أن كل الوقت الباقى ينبغى أن ينصرم بالضرورة فى مجرد تفاهات ، بل أنا أعنى أن العمل مدة أربع ساعات يوميا يجب أن يؤهل الإنسان للحصول على ضرورات الحياة ووسائل الراحة الأولية فيها ، وأن يستخدم بقية وقته بالطريقة التى يرى أنها مناسبة . إنه لأمر هام فى أى نظام اجتماعى من هذا القبيل أن يعنى باتساع رقعة التعليم عما هى عليه فى الوقت الحاضر . وأن يرمى جزئيا إلى خلق أمزجة تمكن الإنسان من الانتفاع بوقت فراغه فى ذكاء .. وأنا لا أفكر أساسا فى هذا النوع من التعليم الذى يعتبر - ثقافة الخاصة - لقد اندثرت رقصات الفلاحين إلا فى مناطق زراعية نائية ولكن البواعث التى تسببت فى وجودها لابد أنها لا تزال باقية فى الطبيعة البشرية . لقد أصبحت متع المجتمعات المدنية متعا سلبية أساسا مثل التردد على دور السينما ، ومشاهدة مباريات كرة القدم والاستماع إلى الراديو إلى غير ذلك . وهذا ناجم من أن العمل يستنفد طاقتهم الايجابية تماما . ولو كان لديهم فراغ أكبر لاستمتعوا بلذات يشتركون فيها اشتراكا ايجابيا .

كانت هناك طبقة صغيرة مترفة وطبقة كبيرة كادحة .. وكانت الطبقة المترفة تتمتع بامتيازات لا أساس لها من ناحية العدل الاجتماعى . وقد أدى هذا بالضرورة إلى تحويل هذه الطبقة إلى طبقة ظالمة ، محدودة فى اشفاقها وعطفها ، كما أدى إلى اختراع نظريات تبرر بها هذه الطبقة الامتيازات التى تستمتع بها . هذه الحقائق أساءت إساءة بالغة إلى أصالة هذه الطبقة وامتيازها ولكننا على الرغم من هذا العيب مدينون إلى هذه الطبقة بكل ما اصطلحنا على تسميته بالحضارة ، فقد احتضنت هذه الطبقة الفنون واكتشفت العلوم وكتبت الكتب واخترعت الفلسفات وأقامت علاقات اجتماعية مهذبة . وحتى تحرير المظلومين من ربقة الظلم كانت شرارته فى العادة

تنبعث من فوق عن هذه الطبقة ولولا هذه الطبقة المنعمة التى يدين لها الفراغ لما خرجت الانسانية أبدا من غياهب البربرية .

كانت مسألة وجود طبقة تنعم بالفراغ الموروث دون القيام بواجبات أمر فيه ضياع وعبث بشكل ظاهر على أية حال . ولم يتعلم أى من المنتمين إلى هذه الطبقة أن يكون مجتهدا كادحا ولم تكن الطبقة فى مجموعها تتميز بذكاء خارق بشكل غير عادى . فقد تتمخض هذه الطبقة عن داروين واحد . ولكنها فى مقابل ذلك تشمل عشرات الألوف من سادة الريف الذين لم يعن لهم أن يفكروا فى أى شيء على الاطلاق أكثر ذكاء من صيد الذئاب ومعاقبة سارقى حيوانات الصيد . والمفروض أن الجامعات فى الوقت الحاضر تمدنا بالمعرفة بطريقة أكثر تنظيما عما كانت الطبقة المترفة المنعمة تمدنا به عفو المصادفة وكمسألة جانبية . وهذا تقدم عظيم ولكن تشوبه بعض المثالب فالحياة الجامعية تختلف تماما عن حياة العالم عامة لدرجة أن مشكلات الناس ومشاغلهم تغيب عن أذهان الرجال الذين يعيشون فى وسط أكاديمى .. أضف إلى ذلك أن الطرق التى يعرب بها هؤلاء الاكاديميون عن أنفسهم لا تسمح لآرائهم فى العادة أن تؤثر فى الجمهور العام كما كان ينبغى . وهناك عيب آخر يرجع إلى أن الدراسات الجامعية منظمة ومن المحتمل أن تثبط همة إنسان إذا ما هو فكر فى أن يخط لنفسه بحثا محددا مستقلا . وعلى ذلك فالمعاهد العلمية رغم نفعها ليست بالحفظة الصادقة التى ترعى مصالح الحضارة فى عالم لا يجد فيه كل انسان خارج أسوار هذه المعاهد متسعا من الوقت للانشغال بأهداف غير نفعية .

سيجد كل إنسان يملك حب الاستطلاع العلمى وسيلة لإشباع رغبته فى عالم لايضطر فيه أحد إلى العمل أكثر من أربع ساعات يوميا ، كما أن كل رسام سيتمكن من الرسم دون التعرض لأن يتضور جوعاً على الرغم من امتياز لوحاته ولن يضطر الكتاب الناشئون إلى لفت الأنظار اليهم بالكتابات المثيرة رغبة منهم فى الحصول على الاستقلال الاقتصادى اللازم لانتاج الجليل من الاعمال التى سيفقدون تذوقهم لها

والقدرة على تنفيذها عندما يتوفر لهم الوقت أخيرا .. وسيتمكن الرجال الذين يهتمون ببعض أوجه الاقتصاد أو الحكم بطبيعة وظائفهم من تطوير أفكارهم دون تلك العزلة الاكاديمية التى تجعل من عمل رجال الاقتصاد فى الجامعات شيئا ينقصه القرب من الحقيقة فى أغلب الاحيان . كما سيتوفر لدى رجال الطب فسحة من الوقت لكى يلحقوا بتقدم الابحاث الطبية ، ولن يبذل المعلمون الجهد اليائس وهم يكافحون فى عنت لنشر العلم بوساطة أساليب روتينية سبق أن تعلموها فى شبابهم ، والتى يجوز أن يكون عدم صحتها قد ثبت لهم فيما بعد .

وفوق كل شىء ستعم السعادة وفرحة الحياة بدلا من الاعصاب المتوترة ، والارهاق وعسر الهضم ، ولن يقف الجهد المبذول عائقا فى سبيل جعل الفرا غ شيئا بهيجا دون أن يكون سببا فى الارهاق . وبما أن التعب لن يصيب الناس فى وقت فراغهم فلن يتطلعوا إلى النوع السلبى من التسلية التى لا طعم لها إطلاقا . ومن المحتمل أن يكرس ١٪ من الناس الوقت الذى يقضونه فى وظائفهم في أوجه لها بعض الاهمية العامة . وحيث أنهم لن يعتمدوا على هذه الاوجه فى كسب الرزق فلن يقف أمام تجديدهم حائل ، كما أنه لن يكون هناك دا ع إلى الالتزام بقيم ومقاييس قد وضعها المسنون والقدامى من أهل العلم . ولن تقتصر مزايا الفرا غ على هذه الحالات الاستثنائية فحسب إذ سيصبح الرجال والنساء العاديون - عندما تتوفر لهم فرصة الحياة السعيدة - أكثر رفقا وأقل ظلما واضطهادا وأقل ميلا إلي النظر إلى الآخرين بعين الريبة والشك . وسيندثر تذوق الحرب لهذا السبب لأن الحرب ستكلف الجميع العمل الطويل المضنى . والطبيعة الطيبة من سائر الصفات الاخلاقية هى الصفة التى يحتاج إليها العالم أكثر من احتياجه إلي أى شىء آخر . والطبيعة الطيبة إن هى إلا نتاج اليسر والطمأنينة لا نتاج حياة الكفاح الشاق . وقد مهدت وسائل الانتاج الحديثة امكانية توفير اليسر والطمأنينة للجميع . غير أننا اخترنا لانفسنا الارهاق للبعض والتضور جوعا للبعض الآخر . واستمررنا نبذل الجهد كما كان الحال قبل استخدام الآلات . لقد كنا أغبياء فى ذلك وليس هناك دا ع للإصرار على غباوتنا إلى الابد .

دفاع عالم عن الديمقراطية

يبدو لى أن التقاليد الليبرالية التى ترعرعت فى ظلها لاتزال لها أهمية عظمى للرفاهية الإنسانية فالثابت من الناحية الاقتصادية أن تطور المؤسسات الصناعية الضخمة اقتضى أسلوب تناول جديد لمشكلة العدالة القائمة على الاستحقاق ، بيد أنه فى المجالات الأخرى لم أجد سببا يدعو إلى التخلى عن المثل العليا التى تشربتها فى شبابى ، وهى حرية التعبير والتسامح والديمقراطية واحترام الفرد بقدر ما تسمح الحاجة إلى المحافظة على النظام العام فهذه المثل العليا فى المجال السياسى تقابل الأسلوب العلمى فى المجال الفكرى ، فإذا تخلينا عن أحدهما تأثر الآخر تأثرا سيئا وإهتمامى الآن موجه نحو توضيح هذه الصلة بين الديمقراطية والنظرة العلمية فمنذ العصور الإغريقية القديمة كان هناك رأيان بشأن طريقة التوصل إلى المعتقدات الصحيحة ورأيان مقابلان بشأن أفضل أشكال الحكم . وعلى الرغم من وجود هاتين النظرتين المرتبطتين اللتين يحتدم حولهما الجدل منذ أكثر من ألفى عام ، إلا أنهما تتمتعان الآن بنفس حيويتهما فى أى وقت مضى . ومن الممكن تمييز طريقتين للتوصل إلى ما يعتبر معتقدات صحيحة ، وهما طريقة المعتقدات الراسخة وطريقة المنافشة والتقصى . وبنفس الطريقة فإن شكلى الحكم هما الحكم القائم على سلطة المعتقدات الراسخة والحكم القائم على المنافشة التى يعقبها قرار تتخذه الأغلبية . وحيثما تتبع طريقة المعتقدات الراسخة للتوصل إلى المعتقدات الصحيحة ، فإن آراء معينة تستقر فى الذهن باعتبار أنها صدرت عن الحكماء والأفاضل ومن يعترضون على هذه الآراء يعتبرون حمقى أو أشرارا أو كليهما معا ، ويتعرضون لعقوبات تتفاوت فى نوعها وشدتها حسب العصر والبلد . وأحيانا يعتمد أنصار التمسك بالأفكار الراسخة اعتمادا كاملا على التقاليد ، ولكن هناك فى معظم الحالات كتاب مقدس يعتبر الخروج عليه جرما . ففى الدول المسيحية تعرض الرجال للحرق لتشككهم فى التفسير الرسمى

للإنجيل . وفى الدول الإسلامية كان من الرعونة البالغة إثارة الشك حول أى جزء من القرآن وفى روسيا الحديثة يغامر المرء بالتصفية الجسدية إذا اختلف مع تفسير الكرملين لماركس وإنجلز . وفى كل هذه الحالات تتمسك الحكومة بمجموعة من العقائد التى لا تقبل الجدل وتنشرها وتثبت الاعتقاء بها ليس بالحوار أو بقوة البرهان وإنما يمنع الشباب - من الاتصال بالآراء المضادة ، وبفرض الرقابة على الكتابة وبالعقاب بالموت عادة لهؤلاء المهرطقيين الذين يبلغ بهم التهور حد إعلان آرائهم الهدامة . وكقاعدة عامة فإن الحكومة بعد أن تعتاد على السلطة في ظل مثل هذا النظام يزداد طغيانها تدريجيا إلى أن تتحطم فى النهاية فى ثورة عارمة .

ولكن إتباع المذهب التجريبى اللذين يدينون بنفوذهم أساسا للنهضة العلمية لهم رأى مغاير تماما فى طريقة التوصل إلى المعتقدات التى يفسرها إعمال العقل بدقة والتى تؤدى - حيثما تطبق - إلى اتفاق عام بين الأكفاء من الناس . وحين يحتدم جدل حول مسائل علمية - كما يحدث كثيرا - فإنه يحسم إن عاجلا أو أجلا بإثبات أن قوة البرهان ترجح أحد الجانبين ، وليس بتصفية أو حرق هؤلاء الذين يعتنقون ما يعتبر في لحظة ما رأى الأقلية . ولقد كان على العلم فى القرنين السادس عشر ، والسابع عشر بل وفى القرن الثامن عشر أن يناضل من أجل بقائه ضد سطوة المعتقدات التقليدية . ولقد أحرق جوير دانو برونو وأدينت حجج جاليليو المبنية على آراء كوبر نيكوس وأرغمت جامعة السوربون بافون على أن يتنصل من رأية القائل بأن الجبال والوديان الموجودة حاليا لم تكن موجودة منذ بدء الخليقة وانتصر العلم في هذا الصراع فى الدول الغربية بسبب فائدته الاقتصادية والعسكرية أساسا ، فحين كان على الأمم أن تقرر ما إذا كانت ترغب فى أن تكون فقيرة ومهزومة ومتمسكة بالتقاليد الراسخة التى لاتقبل الجدل ، أو غنية ومنتصرة ومتحررة ، لم تختر التمسك بالتقاليد الراسخة والدمار سوى أكثر الدول تزمتا مثل أسبانيا وكانت مزايا العلم النفعية لاتقاوم ولكن موقف عدم المبالاة بالمعتقدات الراسخة الذى يقره العلم فى الأذهان لم يكن ممكنا

أن يقتصر على المسائل العلمية البحتة ، ولذلك كانت الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية وتطور الديمقراطية فى إنجلترا هى نتائجة الطبيعية .

إن الصلة بين العلم والديمقراطية أوثق مما يظن البعض أحيانا وحلقة الاتصال المشتركة بينهما هى تأكيد المناقشة الحرة كنقيض للسلطة التى لا تقبل الجدل فهناك فى أى عصر أو مجتمع غير علمى محتكرون رسميون للحكمة مثل الكهنة فى مصر القديمة أو التبت . والذين يمتلكون الحكمة الرسمية هم الذين يمتلكون زمام السلطة السياسية أو يرتبطون بصلة وثيقة بمن يمتلكونه ، وتعتبر معارضة الأوامر التى يملونها إساءة للآلهة تثير سخط الجماهير رغم أنها قد تبدو فى نظر الشخص المحايد فى صالح الشعب وفى مثل هذا الجو الفكرى تسهل إقامة الحكم الاستبدادى أو حكم الأقلية واستمراره ، وذلك أن السلطة فى مجال المسائل الخاصة بالرأى تقترن عادة بالسلطة فى مجال الشئون العملية ولكن حيثما تشيع النظرة العلمية بدرجة كافية يصبح من المألوف المطالبة بأكثر من مجرد التأكيد الشديد للتقاليد القديمة أو الاستشهاد بها قبل التسليم بالرأى المطروح وبالطبع لاتزال السلطة التي لاتقبل الجدل قائمة ، وقليلون منا يتصدون لبحث صحة البرهان القائل بأن الشمس تبعد عن الأرض بمسافة ٩٣ مليون ميل أو أن الضوء يسير بسرعة ١٨٦ ألف ميل فى الثانية .

إننا نقبل هذه المعلومات لأنها صدرت عن أشخاص نعتبرهم جديرين بالتصديق ، ولكننا نعتبرهم جديرين بالتصديق ليس لأنهم يعتنقون رأيا قائما منذ قديم الأزل أو لأنهم قادرون على الاستناد إلى كتاب مقدس أو لأننا إذا عارضناهم فسوف يقطعون رؤوسنا أو يزجون باسرنا فى معسكرات الاعتقال فكل إنسان حر تماما فى أن يعتنق الرأى الذى يهواه بشأن سرعة الضوء ، والعقاب الوحيد الذى يناله لاعتناقه رأيا غير مألوف هو أن يرميه الناس بالغباوة ونتيجة للنقاش الحر يصل كل القادرين على تكوين حكم إلى اتفاق بينهم لايفرضونه على غيرهم إنما يقبله الغير بالاقتناع .

وعندما نكتسب عادة بناء الآراء على الاقتناع العقلى فى المجال العلمى فمن شأنها أن تمتد إلى مجال السياسة العملية ويدعو هذاإلى التساؤل : لماذا يتمتع إنسان بسلطة أو ثروة غير عادية لمجرد أنه ابن الرجل ذى سلطة أو ثراء ، ولماذا يتمتع الرجل الأبيض بامتيازات يحرم منها ذوو البشرة الملونة ، ولماذا يتحتم أن تخضع النساء للرجال ؟ إن هذه القضايا ، حالما يسمح لها بأن تطرح فى مناقشة مقترحة تستند إلى العقل تجعل من التعذر مقاومة دعوى العدالة إلى توزيع متساو لشكل السلطة النهائى بين جميع البالغين باستثناء المجانين أو المجرمين ، ولذلك فمن الطبيعى أن يسير التقدم العلمى جنبا إلى جنب مع التقدم نحو الديمقراطية .

وعلى عكس ذلك فإن أولئك الذين يحاولون فى العصر الحديث أن يعيدوا أشكال الحكم الاستبدادى سواء فى ألمانيا أو روسيا يعتبرون أعداء لوجهة النظر العلمية وقد كان من رأى النازيين ألا يفكر المرء بعقله ، وكانت لهذه العادة نتائج بالغة الغرابة ، فعلى سبيل المثال كانوا يؤمنون أن أينشتين لم يضع نظريته العامة فى النسبية لأنه اعتقد فى صحتها إنما لمجرد ظنه أنها ستثير حيرة غير اليهود ، ولكنه بالطبع لم يخدع اليهود إذ إنهم كانوا متواطئين معه فى هذه الخدعة ، وإنى من جانبى أعتبر هذا الرأى مهينا بعض الشىء لعقول غير اليهود ، ولكنه ربما ليس كذلك بالنسبة للنازيين ويحدث نفس الشىء فى روسيا ، فطريقة التأكد من صحة حقيقة ما مثل كيفية الحصول على نوع من القمح يقاوم البرودة ليست بإجراء التجارب ولكن بفحص النتائج المستخلصة من مذهب ماركس الميتافيزيقى الخاص بالمادية الجدلية ونظرا لصعوبة هذا المذهب فإنه يتعين أن تفسره طبقة كهنوتية ،وأن تتعرض التفسيرات الخارجة للعقوبات التقليدية التى تفرض فى حالة المروق وليس من العسير الاحتفاظ بدكتاتورية الأقلية حيثما تقبل مثل هذه الأيديولوجية على نطاق واسع .

والسؤال التالى هو : بماذا تتميز الديمقراطية العلمية على الدكتاتورية التى لا تقبل الجدل ؟ تأتى فى مقدمة هذه المزايا الميزة الفكرية البحتة ففى ظل المجتمع

العلمى تقبل المذاهب التى يتضح أنها أقرب إلى الصحة نتيجة النقاش الحر الذى لاتقيده أية قيود ، فى حين أنه فى ظل النظام الدكتاتورى فإن قبول المذاهب يكون إما لأنها تقليدية أو لأنها ملائمة لمن يتقلدون السلطة وتترتب على هذا الاختلاف نتائج كثيرة ، فحين لا يكون الرأى الرسمى هو الرأى النابع من النقاش الحر فإنه يتعين حظر النقاش الحر وعدم تشجيع التفكير الذكى ، ولذلك فإنه من مصلحة الحكومة أن تبث الغباء ، وفضلا عن ذلك فحينما ينتفى النقاش الحر يستحيل إبراز المناسبات التى يضحى فيها من يمسكون زمام السلطة بالمصلحة العامة فى سبيل تحقيق مآربهم الشخصية وسرعان مايصبحون قادرين على أن يمارسوا - دون رادع - أعمال القسوة والظلم التى كان من شأنها فى مجتمع يتمتع بقدر أكبر من الحرية أن تتوقف سريعا بسبب الاستياء العام الذى تثيره ويبين التاريخ أن دراسة الطبيعة البشرية تؤدى بنا إلى أن نتوقع أن أية مجموعة من الناس توكل إليها السلطة على الآخرين سوف تسىء استخدام سلطتها إلا إذا كان لديها من الأسباب ما يجعلها تخشى احتمال فقدان هذه السلطة ولعل أكبر ما يميز الديمقراطية على جميع أنظمة الحكم الأخرى ليس أن الرجال الذين وصلوا إلى القمة يتمتعون بحكمة خارقة للعادة ، وإنما لأن سلطتهم تعتمد على التأييد الشعبى بإنهم يعرفون أنهم لا يستطيعون الاحتفاظ بمناصبهم إذا اقترفوا ظلما بينا .

وقد أصبح من المألوف فى السنوات الأخيرة أن يسخر الذين يزعمون الاهتمام الصادق بمصالح العمال من الحرية الفكرية باعتبارها أمرا يهم أقلية ضئيلة من المفكرين المترفين الذين يمكن تصفيتهم دون أن يلحق بمن عداهم ضرر خطير ويظهر هذا الرأى جهلا بالتاريخ وبالطبيعة البشرية على حد سواء ، فحيثما يحظر النقاش الحر فإن المعاناة لاتقتصر على المفكرين وحدهم وإنما تمتد إلي الجميع باستثناء القائمين على تنظيم الدعاية الرسمية . ولنأخذ على سبيل المثال قضية مساواة النساء بالرجال ، فالثابت أن أصول الحركة المنادية بالمساواة قد نشأت بين قلة من المفكرين

معظمهم من الرجال ، وفى بداية الأمر أصابت هذه الحركة معظم النساء بصدمة لاتقل عن صدمة الرجال ، ولو أن النقاش الحر وحرية التعبير تعرضا للحظر لما استطاعت الحركة أن تحرز أى تقدم على الإطلاق ، ولظل ما تكسبه النساء ملكا لأزواجهن ولظل للرجال الحق فى ضرب زوجاتهم بعصا لايزيد سمكها عن سمك الإبهام .

إن التغيير الذى حدث فى هذه النواحى لا يستفيد منه المفكرون وحدهم ولنأخذ مثالا آخر وهو ظهور الحركة النقابية التى كان من المستحيل تماما أن يكون لها وجود لولا الجو الليبرالى الذى أتاح النقاش الحر الذى عاق نشاط هؤلاء الذين تمنوا أن تظل النقابات العمالية غير قانونية ،ولذلك فإن حرية الدعاية هى أفضل ضمان ضد الظلم والإجحاف وكذلك ضد الحماقات التقليدية البالية .

ومن أهم مظاهر المطالبة بالمساواة السياسية بين مختلف بنى البشر فى عصرنا هو التسليم المتزايد - وإن كان بدرجة غير كافية حتى الآن - بأن الزعم بتفوق الجنس الأبيض على سائر الأجناس الأخرى دعوى باطلة وهنا أيضا يلعب النقاش الحر دورا أساسيا فى دحض محاولات هؤلاء الذين يستخدمون حججا قائمة على الداروينية المزيفة والعلم المزيف لتأييد مذاهب عنصرية واهية الأساس ، ولذلك فإن التمرد الحديث على الديمقراطية من جانب قطاعات معينة من الرأى اليسارى - سواء كان مقصودا أو عن غير قصد - يعتبر بالضرورة مناقضا للعلم .

لقد قرر ماركس أن مصالح الكادحين مرتبطة بطريقة غامضة بالمذهب المادى ، ولكن علم الفيزياء الحديث كفلسفة يجعل المذهب المادى أمرا غير مقبول ، ومن ثم فإن الماركسيين يعتبرون علم الفيزياء الحديث اختراعا بورجوازيا . بيد أن ذلك الأمر يؤدى على المدى الطويل إلى التخلف عن ملاحقة العصر مثلما أدت إدانة محكمة التفتيش لجاليليو إلى ازدهار علم الفلك أساسا فى البلاد التى تعتنق المذهب البروتسانتى . ومن المؤكد أن يزداد تخلف أى نظام دكتاتورى أو استبدادى رغم أنه قد يساير الرأى

العلمى فى بداية الأمر ، وعندما يتخلف النظام فإن العاقبة تكون وخيمة ليس من الناحية النظرية فحسب بل ومن الناحية التكنيكية أيضا ، ولذلك فإنه لا يمكن المحافظة على التقدم وقتا طويلا إلا فى جو من الحرية حتى فى أمور مثل التكنيك العسكرى الذى تحرص الحكومات أشد الحرص على تطويره وغالبا ما تكون الآراء الجديدة غير مستساغة لدى السلطات الحاكمة ، ولكن حيثما تتعرض هذه الآراء للقمع فإن المجتمعات تصاب بالجمود ، ولذلك فإننى أثق أن الدول التى تحافظ على الحرية العلمية والفكرية ستكون أكثر كفاءة فى الحرب من تلك الدول التى تخضع للدكتاتورية .

إن الدكتاتورية لا تميل فحسب إلى صب الآراء فى قالب واحد ومنع التقدم الفكرى والفنى ، وإنما تميل أيضا إلى خلق روح عدم الإخلاص فى نفوس الخبراء فقد صدرت الأوامر إلى الضابط الطبيب فى داشو باختراع شىء يضارع البنسيلين فى فاعليته ، وسرعان ما أدعى أنه توصل إلى ذلك الاختراع وقام بتسميم المسجونين وأثبت أن الذين حقنهم بمادته الجديدة هم الذين بقوا على قيد الحياة فى حين قضى الآخرون نحبهم ، ثم أتضح فيما بعد أنه حقن الذين كان يرغب فى بقائهم على قيد الحياة بقدر ضئيل من السم ، ولذلك أعدمه النازيون . ومن المؤكد أن تصبح مثل هذه الأمور شائعة فى ظل حكم الإرهاب .

ومع ذلك فلا أود أن أقيم قضية الحرية والديمقراطية على أساس إحراز النجاح فى الحرب وإنما أفضل أن أقيمها على اعتبارات عامة تتعلق بالرفاهية البشرية . ذلك أن النقاش الحر يميل إلى تشجيع روح التسامح التى تميل بدورها إلى منع نشوب الحرب وحيثما تتاح الفرصة للجأر بالشكوى ، يزيد احتمال علاجها ويقل احتمال تسببها فى خلق الاحقاد الدفينة ، وحيثما يوجد نظام حكم جامد فإنه يشجع روح القسوة التى لا تعرف إلى الرحمة سبيلا فى قلوب هؤلاء الذين يعتقدون أن سلطتهم فى مأمن ، وفى نهاية الأمر تصبح قوى المقاومة عارمة ، ونتيجة لطول تحملها الآلام التى لاتطاق فإنها تنفجر فى جنون تحطم أغلالها وترتكب أعمالا انتقامية وحشية . ولايمكن

تجنب مثل هذه الانفجارات العنيفة حيثما تتمسك الأقليات بالسلطة ولكن الثورات التى يحركها الحقد - مهما كانت ضرورية - ليست أفضل وسيلة لخلق عالم أفضل ، ذلك أن هؤلاء الذين يكرهون من يضطهدونهم من شأنهم أذا أتيحت لهم الفرصة أن يكرروا نفس الجرائم التى ثاروا ضدها . ولايتيسر إلا فى ظل نظام حكم ديمقراطى يتيح فرصة النقاش الحر علاج الشرور دون تطرف فى العنف من شأنه أن يولد شرورا جديدة لاتقل سوءاً عن الشرور التى جاء لاقتلاعها . إن الديمقراطية تجسد العدالة والنقاش الحر يجسد التفكير الرشيد ، ولايمكن إيجاد وسيلة للتخلص من الأخطار التى تهدد بها الحرب الحديثة الجنس البشرى إلا باتباع العدالة والتفكير الرشيد .



عظماء فى حياة برتراند راسل

(١) هـ . ج . ويلز

H. G. Wells

قابلت هـ . ج . ويلز لأول مرة فى عام ١٩٠٢ فى جمعية صغيرة للمناقشة أنشأها سيدنى ويب وأطلق عليها اسم «القواسم المشتركة» أملا فى أن نتعاون للعمل بكفاءة فيما بيننا . وكان عددنا حوالى أثنى عشر عضوا .

لم أكن قد سمعت عن هـ . ج . ويلز مطلقا حتى ذكره ويب على أنه رجل كان قد دعاه لكى يصبح «قاسما مشتركا» وأخبرنى ويب أن ويلز شاب كان يكتب فى ذلك الوقت قصصا على غرار جول فيرن . ولكنه كان يأمل عندما يذيع اسمه ويجمع ثروة عن طريق قصصه هذه أن يقف حياته على عمل أكثر جدية . وسرعان ماوجدت أننى كنت مختلفا أشد الاختلاف مع معظم «العوامل المشتركة» بدرجة لايمكننى معها الاستفادة من المناقشات أو إضافة أى شىء مفيد إليها . وكان سائر الأعضاء ماعدا ويلز وأنا استعماريين كما كانوا يتطلعون دون أن يصيبهم كثير من الجزع إلى حرب مع ألمانيا . وأستهوانى ويلز بسبب كراهيتنا المشتركة لوجهة النظر هذه . وكان ويلز يدين بالمبادىء الاشتراكية ويعتبر حينذاك – وأن كان قد تغير فيما بعد – أن الحروب حماقة وجنون ، وتأزمت الامور عندما دافع السير أدوارد جرأى الذى كان فى المعارضة – عما أصاب سياسة الدول الصديقة آنذاك مع فرنسا وروسيا ، تلك السياسة التى تبنتها حكومة المحافظين بعد قرابة عامين والتى دعمها ومكن لها السير أدوارد جرأى عندما أصبح وزيرا للخارجية . وتحدثت منددا فى عنف ضد هذه السياسة التى شعرت أنها تفضى مباشرة إلى حرب عالمية ولكن الجميع باستثناء ويلز اختلفوا معى فى الرأى .

وكانت نتيجة التعاطف السياسى بيننا أننى دعوت ويلز ومسز ويلز ليزورانى فى باجلى وود بالقرب من اكسفورد حيث كنت أقطن فى ذلك الوقت . ولم تكن الزيارة ناجحة تماما .

أتهم ويلز زوجته فى وجودنا بأنها تتكلم بلهجة العوام من أهل لندن وهو أتهام (فيما بدا لى) يمكن أن يوجه إليه عن جدارة واستحقاق أكبر . وهناك مسألة أجل شأنا نشأت عن كتاب كان قد كتبه مؤخرا بعنوان «فى أيام المذنب»[١] ويروى هذا الكتاب أن الارض تخترق ذيل مذنب يحتوى على غاز من شأنه أن يجعل كل إنسان عاقلا . ويوضح الكتاب انتصار العقل والاتزان بطريقتين . أن حربا مستعرة - كانت تدور رحاها بين انجلترا وألمانيا - تتوقف بالاتفاق المتبادل ، وأن كل إنسان ينغمس ويستغرق فى حب منطلق من كل القيود. وشنت الصحافة هجوما على ويلز لا لدفاعه عن السلام وأنهاء الحرب ولكن لدفاعه عن الحب الطليق . فرد بنوع من الحرارة والحماسة أنه لم يدافع عن الحب المنطلق ولكنه مجرد أنه تنبأ بنتائج ممكنة الحدوث لوجود عناصر جديدة داخلة فى تركيب الجو دون أن يذكر إذا كان يستحسن هذه النتائج أم يستهجنها . وبدا لى هذا تلاعبا واحتيالا . وسألته : لماذا دافعت عن الحب بلا قيود بادىء الامر ثم تراجعت بعد ذلك ؟ فأجاب بقوله إنه لم يكن قد اقتصد بعد من حقوق التأليف والنشر ما يكفيه من مال حتى يمكنه أن يعيش على ريعها وأنه لا يعتزم أن يجهر بدفاعه عن الحب الطليق قبل أن يتم له ذلك .. وكنت فى تلك الايام متشددا ، من غير داع فأساءت هذه الاجابة إلى .

وبعد ذلك لم ألتق به الا لماما حتى انتهت الحرب العالمية الأولى . وعلى الرغم من موقفه السابق من الحرب مع ألمانيا فقد أصبح فى عام ١٩١٤ مؤيدا للحرب مناديا بالقتال بشكل مفرط . واستحدث عبارة «شن حرب لانهاء الحرب» . وقال أنه «متحمس لهذه الحرب ضد الروح العسكرية البروسية» . وأعلن فى أيام الحرب الأولى المبكرة أن

(١) In the days of the Comet

الجهاز العسكرى البروسى برمته قد أصابه الشلل أمام حصون ليبج التى سقطت متهاوية بعد يوم أو يومين فيما بعد . ورغم أن سيدنى ويب كان متفقا مع رأى ويلز فى الحرب إلا أن علاقته الودية به كانت قد توقفت بسبب عدم رضائه عنه من الناحية الاخلاقية من جانب . وبسبب قيام ويلز بحملة شائكة ضده حتى ينتزع منه زعامة الجمعية الفابية من جانب آخر . وقد عبر ويلز عن عدائه لعائلة ويب فى قصص طويلة عديدة . ولم تهدأ ثائرة هذا العداء أبدا .

وبعد انتهاء الحرب الأولى أصبحت علاقاتى بويلز للمرة الثانية أكثر ودا وتوطدا . وكنت أحمل الاعجاب لكتابه «مجمل التاريخ[١]» وخاصة الاجزاء الأولى منه . وألفيت نفسى متفقا مع أرائه فى طائفة كبيرة من الموضوعات . لقد كان يحمل بين جنبيه طاقة وقدرة على تنظيم كميات ضخمة من المواد - كانت عيناه تلمعان ببريق خاطف ، وكان المتحدث معه يحس خلال النقاش معه أنه كان يهتم بفحوى النقاش إهتماما موضوعيا أكثر من اهتمامه الشخصى بمن يجاذبه أطراف الحديث . وكانت عادتى أن أزوره فى عطلات نهاية الاسبوع فى منزله فى أسكس حيث كان يرافق ضيوفه فى عصر أيام الاحاد لزيارة جارته الليدى وأرويك .

وأهمية ويلز ناشئة من الكم في الانتاج أكثر من الكيف . ولكن يجب على الانسان أن يعترف بأنه كان متفوقاً فى بعض أنواع انتاجه . فقد كان يجيد للغاية تصور سلوك الجماهير الجماعى فى ظروف غير معتادة كما هو الحال مثلا فى «حرب العوالم[٢]» وتصف بعض قصصه الطويلة بطريقة مقنعة أبطالا لا يختلفون عنه شخصيا . وهو من الناحية السياسية واحد من الذين جعلوا الاشتراكية مذهبا له وزنه واحترامه فى إنجلترا وكان له تأثير كبير للغاية على الجيل الذى تلاه لا من الناحية السياسية فحسب بل فى مسائل الاخلاقيات الشخصية . وكانت معلوماته مترامية الاطراف وأن لم تكن

(١) Outline of History

(٢) The War of the worlds

تتسم بالعمق فى أى من المواضع ، وكانت له على كل حال بعض الأخطاء التى انتقصت نوعا ما من قدره كحكيم فقد كان يجد أن أعراض الناس عنه أمر لايطاق وكان يتنازل عن أشياء أمام الصيحات الشعبية المتعالية مما كان ينتقص من الانسجام والتماسك فى تعاليمه . وحينما أصابه الانزعاج والقلق بسبب اتهامات الانحلال والخيانة الجنسية التى وجهت إليه شاء أن يكتب قصصا من الدرجة الثانية بعض الشىء يهدف من ورائها إلى أن ينفى مثل هذه الاتهامات عن نفسه «كروح أسقف»[١] أو قصة الزوج والزوجة اللذين يشرعان فى العراك والتشاحن ويقضيان الشتاء فى لابرادور حتى يضعا حدا لهذا التشاجر ثم يصفو الجو بينهما بسبب معركة يخوضانها سويا ضد هجمة دب ، وفى آخر مرة رأيته فيها وكانت قبل وفاته بوقت قصير تحدث فى جدية تامة عن الاضرار الناشئة عن الانقسامات فى جبهة اليسار ، وفهمت - رغم أنه لم يقل هذا صراحة - أنه يعتقد أنه يجب على الاشتراكيين أن يزيدوا من تعاونهم مع الشيوعيين أكثر مما كانوا يفعلون . ولم يكن هذا رأيه وهو فى قمة قوته وذروة نشاطه عندما اعتاد أن يسخر من لحية ماركس ويحث الناس على عدم تبنى أصول الماركسية الجديدة .

وتتلخص أهمية ويلز أساسا فى أنه محرر للفكر والخيال . فقد كان قادرا على بناء صور للمجتمعات ممكنة بطريقة وضاءة هادية للغاية أحيانا . وقصته «بلد العميان[٢] إن هى إلا قصة الكهف الرمزية عند أفلاطون فى لغة عصرية وقالب متشائم بعض الشىء . وكان يقصد من «مدنه المثلى» - رغم أنها ليست راسخة فى حد ذاتها - إثارة سلسلة من الأفكار قد يثبت جدواها . وهو عقلى دائما ويتجنب صور الخزعبلات المختلفة التى يتعرض عقل الانسان الحديث للانزلاق فيها . وإيمانه بالمنهج العلمى إيمان صحيح ويبعث على القوة . ورغم أن تفاؤله يصعب التمسك به نظرا لحالة

(١) The Soul of a Bishop

(٢) The Country of the Blind

العالم الراهنة إلا أنه من المحتمل جدا أن يقود إلى نتائج طيبة أكثر مما يقودنا إليها التشاؤم المتراخى الكسول بعض الشىء الذى أصبح شائعا فى كل مكان أكثر مما ينبغى . وعلى الرغم من بعض التحفظات فإنى أعتقد أنه يمكن لنا اعتبار ويلز كقوة هامة تدفع إلى التفكير العاقل البناء فيما يتعلق بالأنظمة الاجتماعية والعلاقات الشخصية على حد سواء . وأملى أن يجىء بعده من يخلفونه ولو أننى لا أعرف فى الوقت الراهن من سيكونون له خلفاء .



(٢) د . هـ . لورنس D. H. Lawrence

كانت معرفتى بلورنس قصيرة ومضطربة ، دامت فى مجموعها مايقرب من عام . وقد جمعتنا معا الليدى «أتولين مورل» التى كانت تكن لكلينا الاعجاب والتى جعلتنا نعتقد أنه ينبغى علينا (لورنس وأنا) أن نتبادل الاعجاب . كانت الدعوة إلى السلام قد ولدت فى نفسى شعورا بالثورة المريرة ، ووجدت فى لورنس ثورة عارمة كالتى كانت تعتمل فى صدرى ، مما جعلنا نظن بادىء الأمر أن هناك وشائج كثيرة من الوفاق الفكرى تربط الواحد منا بالآخر . وقد تبينا فيما بعد ، أن شقة الخلاف التى تفصل بيننا أبعد من خلاف أى منا مع إمبراطور ألمانيا .

وكان يتنازع وجدان لورنس حينذاك موقفان من الحرب : فمن ناحية ، لم يكن فى وسعه أن يكون وطنيا بكل جوارحه لأن زوجته كانت ألمانية . ومن ناحية أخرى بلغت كراهيته للانسانية حدا جعله يميل إلى التفكير أن كلا الجانبين لابد أن يكون على صواب فى الكراهية التى يحملها كل منهما للاخر . وعندما تكشف لى هذان الموقفان ، أيقنت أنه لا يمكن لى أن أعطف على أى موقف منهما . ولكن إدركنا لأوجه الخلاف بيننا جاء بالتدريج على أية حال ، واستمرت علاقتنا فى بادىء لأمر سعيدة مرحة كأجراس العرس . ودعوته لزيارتى فى كامبريدج حيث قمت بتقديمه إلى كنيس KeYnes وإلى عدد أخر من الناس . ولكنه قابلهم جميعا بروح الكراهية ، ووصفهم جميعا بأنهم «موتى ، موتى ، موتى» . وظللت فترة من الزمن أعتقد أنه من الجائز أن يكون على صواب ، فقد أحببت عواطف لورنس المتقدة ، كما أحببت فيه الايمان بحاجة العالم إلى شىء جوهرى للغاية ، لاصلاح شأنه . وكنت متفقا معه فى التفكير فى استحالة فصل السياسة عن النفسية الفردية ، وأشعر أنه رجل تتسم عبقريته الأكيدة بالخيال . وفى البدء عندما كنت أميل إلى الاختلاف معه ، كنت أظن أن بصيرته النفاذة فى إدراك الطبيعة البشرية تفوق بصيرتى عمقا . ولم يصل الحال بى أن أشعر بقوته الايجابية

على الشر إلا بالتدريج ، وانتهى الأمر بأنه أصبح يشعر نحوى بمثل الذى كنت أشعر به نحوه .

كنت فى ذلك الوقت منصرفا إلى تحضير سلسلة من المحاضرات التى نشرت فيما بعد بعنوان «مبادىء اعادة البناء الاجتماعى[1]» وكان هو أيضا يرغب فى إلقاء المحاضرات ، وبدا لى حينذاك أنه من الممكن أن ينشأ بيننا نوع من التعاون الخفيف . وتبادلنا عددا من الرسائل أضاع هو ما أرسلته إليه ، ولكن رسائله رأت طريقها إلى النشر . ومن الممكن لمن يتتبع رسائله أن يدرك تدريجا شعورا بخلافاتنا الجوهرية فقد كنت شديد الايمان بالديموقراطية ، فى حين أنه استولد كل الفلسفة الفاشية قبل أن يفكر رجال السياسة فيها . وكتب يقول : إننى لا اؤمن بالسيطرة الديموقراطية . وفى رأيى أن العامل يصلح لانتخاب حكام ورؤساء لخدمة احتياجاته المباشرة فقط . لابد أن تعيدوا النظر كلية فى نظام الناخبين بحيث يحق للعامل انتخاب رؤساء للأمور التى تعنيه مباشرة ، وبحيث يتم انتخاب السلطة العليا من الطبقات الاخرى الناهضة . ويجب أن يتبلور النظام الاجتماعى فى آخر الأمر فى رأس واحد حقا كما هو الحال فى كل كائن حى – لا جمهوريات سخيفة يرأسها رؤساء جمهوريات سخفاء بل ملك منتخب ، شىء أشبه مايكون بيوليوس قيصر» . وهو بطبيعة الحال يفترض فى تصوراته أنه سيصبح يوليوس قيصر المنتظر عند إرساء أسس النظام الديكتاتورى . وكان هذا جانبا من طبيعة تفكيره الحالم الذى لم يسمح له بالنزول إلى الواقع أبدا . وكان ينفجر فى خطب هجومية طويلة ، متحمسة يعلن فيها ضرورة إذاعة الحقيقة على الجماهير . ويبدو أن الشك لم يتطرق إليه فى أن الجماهير ستنصت إليه . وسألته عن الاسلوب الذى يعتزم اتباعه فى هذا الصدد . هل سينشر كتابا يتضمن فلسفته السياسية ؟ فكان جوابه بالنفى «لا ، فالكلمة المكتوبة فى مجتمعنا الفاسد تبدو أكذوبة دائما» . وعندما سألته ، إذا كان سيذهب إلى هايد بارك ليعلن الحقيقة من فوق صندوق للصابون ، أجاب بالنفى

(١) Principles of Social Reconstruction

أيضا «لا ، سيكون هذا أخطر مما ينبغى» . (وكانت تصدر عنه من وقت لآخر دلائل الحيطة والحصافة) وكلما سألته عما عساه أن يفعل ، كان يعمد إلى تغيير الموضوع .

واكتشفت بالتدريج أن رغبته فى خلق عالم أسعد لم تكن صادقة ، وأنه يرغب فقط فى أن يدخل فى مناجاة بليغة مع نفسه حول فساد هذا العالم . فإذا ترامت هذه المناجاة إلى مسامع أحد ، كان خيرا وبركة . ولكنه كان يقصد بها على أحسن تقدير خلق نفر قليل من التلاميذ والمريدين المخلصين الذين يستطيعون أن يعيشوا فى صحراء «نيومكسيكو» ويشعروا بقدسيتهم . وقد نقل لورنس كل هذا إلى لغة الدكتاتور الفاشتى محددا ما ينبغى على أن أبشر به ، مؤكدا إياه فى إلحاح وإصرار .

وأصبحت رسائله أكثر عداوة عن ذى قبل فقد كتب إلى قائلا «ما الفائدة فى أن تحيا على هذا النحو على أية حال ؟ إننى لا أعتقد أن محاضراتك حسنة ، لقد أوشكت محاضراتك على الانتهاء . أليس كذلك ؟ ماجدوى الالتصاق بالسفينة الملعونة ومخاطبة الحجاج التجار بلغتهم الخاصة ؟ لماذا لا تلقى بنفسك من سطح السفينة إلى عرض البحر ؟ لماذا لا تخرج تماما من الاستعراض كله ؟ لابد للانسان أن يكن خارجا على القانون فى هذه الأيام لا معلما أو مبشرا» . وقد بدا لى أن هذا لا يعدو أن يكون مجرد خطابة ، فقد أصبحت خارجا عل القانون أكثر مما كان هو عليه فى أية فترة فى حياته . ولم أستطع أن أتبين بالضبط سبب شكواه منى ، وقد دأب على صياغة شكواه فى أساليب مختلفة فى أوقات مختلفة . وفى مناسبة أخرى كتب يقول «توقف عن العمل والكتابة تماما» . وكن دائما كائنا حيا بدلا من أن تكون آلة ميكانيكية . ابتعد تماما عن السفينة الاجتماعية كلها ، وكن مجرد لا شىء صونا لكبريائك : كن كفأر الغيط كائنا حيا يشعر ولايفكر . ولتكن من أجل السماء طفلا ، ولا تكن عالما بعد الآن . لا تفعل أى شىء أكثر من هذا – ولكنى أستحلفك بالسموات أن تبدأ فى أن تكون . ابدأ من أول الطريق وكن باسم الشجاعة طفلا كاملا» .

«اه إنى أريد أن أطلب منك عند كتابتك لوصيتك أن تترك لى من المال مايكفى لأن أعيش به .وأنى أرجو لك أن تعيش إلى الأبد ولكنى أريد منك أن تجعلنى وريثا جزئيا لك» والصعوبة الوحيدة التى تعترض هذا الطلب هى أننى لو قمت بتنفيذه ، لما وجدت شيئا أورثه بعد وفاتى .

وكانت له فلسفة فى «الدم» تصوفية تثير كراهيتى . فقد قال : «هناك مركز آخر للشعور غير المخ والاعصاب» .

«هناك شعور بالدم موجود فينا ومنفصل عن الشعور الذهنى العادى . فالانسان يعيش ويعرف وله كينونته فى الدم دون أن تكون هناك أية صلة بالاعصاب والمخ . وهذا يكون نصف الحياة التى تنتمى إلى الظلام . فعندما أعاشر امرأة ، يسود مبدأ الدم كل شىء ومعرفتى التى أستمدها عن طريق الدم تطغى على كل شىء . وينبغى علينا أن ندرك أن لنا وجودا فى الدم ، وشعورا فى الدم ، وروحا فى الدم كاملا ومنفصلا عن أى شعور ذهنى وعصبى» وبصراحة ، بدا لى أن هذا لغو أجوف ورفضته بشدة . ولم أكن أتخيل حينذاك أن هذه الفلسفة ستفضى إلي معتقل أستوتشز[١] على الفور .

وحين اعترضت على الحرب بسبب ويلاتها أتهمنى بالنفاق وقال : «ليس من الحقيقة فى شىء أنك – أنت ونفسك الاصيلة – تريد السلام . أنك ترضى شهوتك للاضراب والمشاكسة بطريقة زائفه غير مباشرة . فإما أن ترضيها بطريقة مباشرة شريفة ، وتقول «إننى أكرهكم جميعا أيها الكذبة والخنازير هأناذا خارج لأنبرى للهجوم عليكم أو أن تتمسك بالرياضيات حيث تستطيع أن تكون صادقا ، وأمينا . أما أن تظهر بمظهر ملاك السلام ، فلا . وأنا أفضل ألف مرة أن يلعب أمير البحر تيربتز[٢] هذا الدور» . إننى أجد صعوبة الآن فى فهم الاثر المخرب الهدام الذى تركه

(١) Auschwitz معسكر اعتقال نازى معروف .

(٢) Tirpitz ادميرال فى البحرية الالمانية فى الحرب الأولى .

هذا الخطاب فى نفسى . وكنت أميل إلى الاعتقاد بانه يمتاز بنوع من البصيرة التى لم تتوفر لى . وعندما قال لى أن دعوتى للسلام تستمد جذورها من شهوة دموية ، افترضت أنه لابد مصيب فيما يقول وظللت أفكر مدة أربع وعشرين ساعة فى أننى لا أصلح للحياة وفكرت فى الانتحار . ولكن رد فعل أكثر صحة تغلب على هذا التفكير فى نهاية هذه المدة ، وقررت أن أنفض عن نفسى مثل هذه الافكار المريضة . وعندما قال لى أنه يجب على أن أبشر بمبادئه ، وليس بمبادئى ثرت فى وجهه وذكرته أنه لم يعد مدرسا وأننى لست تلميذا له . لقد كتب يقول : «إنك عدو الانسانية بأسرها ، مفعم بشهوة العداوة والكراهية . وأنت لا تستلهم كراهية الزيف بل تستوحى كراهيتك الناس الذين يتدفق الدم فى عروقهم وأجسادهم حارا . وما هذه الكراهية الا شهوة دم ذهنية منحرفة ، لماذا لا تعترف بهذا ؟ واستمر لبضعه أشهر ، يكتب لى خطابات تحوى من شعور المودة والصداقة ما يكفى لاستمرارنا فى التراسل . ولكن علاقتنا أصابها الفتور فى نهاية الامر ، وذوت دون أية خاتمة درامية . والذى جذبنى إلي لورنس في بادىء الامر صفة ديناميكية أكيدة كانت تميزه ، وعادته فى تحدى الافتراضات التى يتقبلها الانسان على أنها مسلمات لا يرقى إليها الشك . وكنت حينذاك قد أعتدت أن أتهم بعبوديتى المفرطة للعقل ، وأعتقدت أنه ربما يستطيع أن يعطينى جرعة منعشة من اللاعقل . ولا شك أننى أكتسبت منه منبها وحافزا ما . وأظن أن الكتاب الذى كتبته رغم ريح هجومه العاتية ، أفضله نوعا ما مما لو كنت قد كتبته بدون أن أعرفه .

وهذا لا يعنى أن هناك شيئا حسنا فى أفكاره . وأنا لا أعتقد عندما أعود بذاكرتى إلى الوراء أن أفكاره كانت تمتاز بشىء أكثر من أفكار ديكتاتور للمستقبل مستبد ، حساس كان يصب غضبه على العالم ، لأنه يرفض أن يطيعه على الفور . وعندما أدرك أنه لا يعيش بمفرده فى هذا الكون ، كره الناس ، ولكنه كان يعيش معظم الوقت منطويا على نفسه فى عالم من صنع خياله ممتلىء بأطياف عنيفة كما شاء لها أن تكون . ويرجع تأكيده المفرط للجنس إلى أنه فى الجنس وحده كان مضطرا

للاعتراف بانه لم يكن الانسان الوحيد الموجود فى الكون . ولأن هذا الاعتراف كان أليما على نفسه ، دعاه هذا لأن يرى أن العلاقات الجنسية قتال دائم يسعى كل جانب فيه إلى تدمير الجانب الاخر .

لقد كان العالم فى فترة مابين الحربين ينحرف نحو الجنون ، وكانت النازية أصدق تعبير عن هذا الانحراف ، وكان لورنس المدافع المناسب عن مذهب الجنون هذا ، ولست على يقين من أن عقل ستالين السليم البارد غير الانسانى كان أحسن حالا .

(٣) جورج برناردشو George Bernard Shaw

يمكن تقسيم حياة برناردشو المديدة إلى ثلاث مراحل . المرحلة الأولى حتى سن الاربعين ، وكان معروفا فيها كناقد موسيقى ، وعضو مجادل فى الجمعية الاشتراكية الفابية[١] وروائى جدير بالاعجاب ، وصاحب نكتة ذات خطر ضد الزيف والادعاء ثم كانت المرحلة الثانية ككاتب هزلى . وفى مبدأ الامر لم ينجح فى أن تمثل مسرحياته على خشبة المسرح لأنها لم تكن تشبه تماما مسرحيات بنيرو Pinero حتى أدرك مديرو المسارح أخيرا أنها مسلية فأصابت نجاحا عن جدارة واستحقاق . وأعتقد أن الامل كان يراوده طيلة حياته الأولى فى أن يتمكن من تأدية رسالته الجادة بصورة فعالة بعد أن يتحقق له اجتذاب النظارة إليه كمضحك . ولهذا فقد ظهر فى مرحلته الثالثة والاخيرة كنبى يدعو إلى الاعجاب بكل من القديسة جان دارك الاتية من أورليانز والقديس جوزيف الاتى[٢] من موسكو . لقد عرفته فى كل هذه المراحل الثلاث ورأيت أنه كان في المرحلتين الأولى والثانية ممتعا ومفيدا - ولكننى وجدت على كل حال أن إعجابى به فى المرحلة الثالثة كان محدودا .

وسمعت عنه لأول مرة فى عام ١٨٩٠ عندما قابلت وأنا طالب مستجد في الجامعة طالبا مستجدا آخر كان معجبا بكتابه «خلاصة الابسنية»[٣] . ولكنى لم أقابله حتى

(١) Fabian نسبة إلى الجمعية الفابية فى انجلترا التى كانت تنادى بالاشتراكية السلمية على عكس اشتراكية ماركس الثورية .

(٢) يقصد راسل ساخرا جوزيف ستالين بطبيعة الحال .

(٣) The Quintessence of Ibsenism

عام ١٨٩٦ عندما اشترك فى مؤتمر اشتراكى دولى عقد فى لندن . وكنت أعرف عددا كبيرا من المندوبين الألمان ، نظرا لانى قد درست الحركة الديموقراطية الاشتراكية الالمانية . وكانوا ينظرون إلى شو على أنه تجسيد للشيطان ، لأنه لم يكن فى وسعه مقاومة اللذة التى يحس بها عندما يزداد النزاع الناشب تطورا ، ولكنى على كل حال أستمدت رأيى فيه من عائلة سيدنى ويب وأعجبت بمقاله الاشتراكى الفابى الذى حاول فيه تنحية الاشتراكية البريطانية بعيدا عن تأثير ماركس . وكان لايزال حتى ذلك الوقت خجولا . وفى رأيى أنه كان يتسلح فى واقع الامر بنكاته مثله فى ذلك مثل الكثيرين من أهل الدعابة المشهورين كنوع من الدفاع ضد السخرية والهجوم الذى يتوقعه ، وفى هذا الوقت كان قد بدأ لتوه فى كتابه المسرحيات وجاء إلى شقتى ليقرأ إحدى هذه المسرحيات على جمع صغير من الاصدقاء .. كان الاصفرار يعلو وجهه كما كانت أوصاله ترتعش من فرط الاضطراب . وبدا أبعد مايكون عن الشخص الفظيع المروع الذى تحول إليه فيما بعد . وبعد ذلك بوقت قصير بينما مكثنا سويا مع عائلة سيدنى ويب فى مونموتشير انصرف خلالها إلى تعلم فن التأليف الدرامى - فكان يكتب كل أسماء أشخاص مسرحيته على مربعات صغيرة من الورق وعندما كان يؤلف منظرا مسرحيا كان يضع على لوحة شطرنج أمامه أسماء الشخصيات التى تظهر على خشبة المسرح فى ذلك المنظر .

وفى هذا الوقت وقعت لكلينا حادثة دراجة خشيت لحظتها أنها قد تعجل بمستقبله . كان حينذاك قد بدأ يتعلم ركوب الدراجة فارتطم بدراجتى بقوة عظيمة أطاحت به فى الهواء وألقته على ظهره على مسافة عشرين قدما من مكان الاصطدام . ولكنه نهض على أية حال دون أن يصيبه أذى على الاطلاق . واستمر فى ركوب دراجته بينما تحطمت دراجتى مما اضطرنى إلى العودة بالقطار . وكان قطارا بطيئا للغاية وفى كل محطة كان يظهر بدراجته على الرصيف ويدخل رأسه داخل العربة مستهزئا . وإنى أشك فى أنه كان يعتبر الحادث دليلا على فضيلة الحياة النباتية .

وكان تناول طعام الغداء مع مستر شو وزوجته فى أدلفى تراس Adelphi Terrace تجربة غريبة بعض الشيء . كانت مسز شو سيدة بيت على درجة عظيمة من الكفاءة وكان من عادتها أن تقدم إلى شو وجبات نباتية لذيذة الطعم للغاية لدرجة أن الضيوف كانوا يتحسرون بشكل ظاهر على قائمة طعامهم التقليدية . ولم يكن فى مقدوره أن يقاوم ترديده المتكرر بعض الشيء لحكاياته الاثيرة إليه . وكلما عرض شو لخاله الذى انتحر بأن وضع رأسه فى حقيبة سفر مصنوعة من القماش ثم أغلقها عليها - بدت على وجه مسز شو علامات ضجر مروع لدرجة أن الجالس بجوارها كان يحرص على الانصراف عن الاستماع لشو حتى لايضايقها . ولكن هذا على كل حال لم يمنعها من إظهار الاهتمام به . وإنى أذكر مأدبة غذاء حضرتها شاعرة شابة جميلة آملة أن تقرأ قصائدها على شو . وعندما حان وقت انصرافنا وقمنا بتوديعه - أخبرنا شو أنها ستتخلف لهذا الغرض . ومع ذلك فقد وجدناها عند رحيلنا قد سبقتنا إلى الباب الخارجى بعد أن نجحت مسز شو فى التخلص منها بطرق لم يكن من حظى أن ألحظها . وعندما بلغنى بعد هذا بوقت غير طويل أن نفس هذه السيدة كانت قد هددت ويلز بذبح نفسها لأنه رفض أن يستجيب لغرامها تزايد احترامى لمسز شو عن ذى قبل.

ولم يكن إهتمام زوجة شو به أمرا ذا بال فعندما أشرف وزوجته مع ويلز وزوجته على الثمانين جاءوا جميعا لرؤيتى فى بيتى فى سوث دونز - وكان للبيت برج يطل على منظر بديع للغاية .. وارتقى جميعهم الدرج لرؤيته - وكان شو أول الصاعدين ومسز شو آخرهم . وجاء صوتها من أسفل طيلة الوقت الذى قضاه فى الصعود يناديه «ج.ب.س» لا تتحدث وأنت تصعد السلالم . ولكن نصحها لم يأت بنتيجة على الاطلاق فقد انطلق منه فيض من الحديث لم ينقطع .

وكان هجوم شو على الزيف والنفاق فى العصر الفيكتورى مفيدا كما كان ممتعا . ومن أجل هذا يدين له الانجليز بالفضل والعرفان بالجميل ما فى ذلك شك . كانت محاولة إخفاء الغرور والزهو جزءا من الزيف الفيكتورى . وفى شبابى كنا جميعا

نتظاهر بالتفكير فى أننا لا نفضل جيراننا . ووجد شو أن هذا الادعاء يبعث على الملل والسأم فتخلى عنه عند ظهوره للعالم لأول مرة - لقد كان من عادة الناس الاذكياء أن يقولوا أن شو لم يكن مزهوا بنفسه بشكل غير عادى ولكنه كان صادقا وصريحا بصورة شاذة . وقد انتهيت فيما بعد إلى التفكير فى بطلان هذا الزعم - فقد شاهدت بنفسى حادثين أقنعانى بهذا . وكانت أولاهما مأدبة غداء أقيمت فى لندن لتكريم برجسون ، كان شو قد دعى إليها بصفة كونه معجبا به مع عدد من الفلاسفة المحترفين الذين كانوا يقفون من برجسون موقف النقد . وبدأ شو فى عرض فلسفة برجسون والدفاع عنها بنفس الاسلوب الذى كتب به مقدمة - متوشالح[1] وكان من الصعب لهذه الفلسفة حسب عرض شو لها أن تروق في أعين المحترفين من الفلاسفة . فاعترض برجسون بلطف عليه قائلا فى لكنته الاجنبية «آه - لا آه هذا ليس مضبوطا تماما»[2] ولكن شو لم يستح أو يخجل على الاطلاق بل أجاب «آه يا زميلى العزيز - إننى أفهم فلسفتك أكثر بكثير مما تفهمها أنت» وضغط برجسون على قبضتى يديه وكاد ينفجر غاضبا ولكنه تمالك نفسه بجهد جهيد واستمر شو فى عرض فلسفته بمفرده .

وتتلخص الحادثة الثانية فى أنه قابل مازاريك Masaryk الاكبر الذى جاء إلى لندن فى زيارة رسمية والذى لمح من طرف خفى عن طريق سكرتيره إلى رغبته فى أن يرى بعض الناس فى الساعة العاشرة صباحا قبل أن يبدأ فى إنجاز مهام زيارته الرسمية . وكنت واحدا منهم وعندما وصلت أكتشفت أن الاشخاص الآخرين هم شو وويلز وسوينرتون Swinnerton ووصلنا جميعا فى الميعاد ماعدا شو الذى جاء متأخرا والذى تقدم لايلوى على شىء نحو الرجل العظيم وقال له : «مازاريك . أن سياسة

(١) Mathuselah وهى مسرحية معروفة لشو .

(٢) هذه العبارة الغريبة فى النطق فاه بها برجسون بلكنته الاجنبية وهى It is not qvite zat.

تشيكوسلوفاكيا سياسة خاطئة تماما» وشرح وجهة نظره فى حوالى عشرة دقائق وانصرف دون أن ينتظر رد مازاريك عليه .

وكان شو مثل الكثيرين من أصحاب النكتة ، يعتبر أن النكتة بديل كاف للحكمة .وكان يدافع عن أية فكرة مهما كانت سخيفة بذكاء من شأنه أن يجعل أولئك الذين يرفضونها يبدون كالمغفلين . وقابلته ذات مرة فى مأدبة «غداء ايرهون»[1] اقيمت لتكريم صاموبل بتلر وعلمت لدهشتى أنه كان يقبل كل كلمة فاه بها ذلك الحكيم على أنها انجيل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه – كما يقبل حتى النظريات التى قيلت على سبيل المزاج لاغير ، كالزعم بأن الاوديسا قد كتبتها امرأة . وكان أثر بتلر عليه أكبر بكثير مما يدرك معظم الناس . فقد أخذ منه شو كراهيته لداروين مما جعله فيما بعد معجبا ببرجسون . ومن الامور العجيبة ان الآراء التى اعتنقها بتلر حتى يجد لنفسه عذرا ينتحله للاختلاف مع داروين قد أصبحت جزءا من المذهب الرسمى الاصيل المفروض على الاتحاد السوفيتى .

وليس هناك سبيل للدفاع عن احتقار شو للعلم . وهو يشبه تولستوى فى عدم استطاعته الايمان بأهمية أى شىء كان يجهله . وكان حادا عنيفا فى هجومه على تشريح الحيوانات الحية . وأظن أن السبب لم يكن كامنا فى عطفه على الحيوانات ولكن فى عدم ايمانه بالمعرفة العلمية التى يوفرها لنا تشريح الحيوانات الحية . وأظن أن مذهبه النباتى كذلك لا يرجع إلى بواعث رحيمة بل لعله يرجع إلي نوازعه التى تنطوى على قهر البدن والتى عبر عنها تعبيرا كاملا فى الفصل الاخير من مسرحية «متوشالح» . وكان أحسن مافى شو يظهر فى مقدرته كجدلى ، فإذا رأى فى معارضه أى سخف أو زيف انتهزه فى لمح البصر ، واستغله فى صورة تزيد من أنصاره وبشكل يدعو إلى· إمتاع

(١) Erewhon وهى قصة كتبها صامويل بتلر .

مؤيديه . وفى بداية الحرب العالمية الأولى أصدر كتابه «التعقل فيما يتعلق بالحرب»[١] وعلى الرغم من أنه لم يكتب كواحد من أنصار السلام إلا أنه أسخط معظم الوطنيين عليه برفضه موافقة الحكومة واقرارها على اللهجة الاخلاقية العالية المنافقة التى تبنتها . لقد كان شو جديرا بالثناء فى مثل هذه الاحوال حتى وقع فريسة مداهنة الحكومة السوفيتية وإطرائها المتملق له . فقد فقد كل قدرته على النقد وعلى كشف النقاب عن الزيف الوافد من موسكو ، ومع أنه كان ممتازا فى الجدل إلا أنه لم يرق إلى مستواه الجدلى فى عرضه لارائه الخاصة التى كانت مشوشة إلى حد ما حتى السنوات الاخيرة من حياته التى أقر فيها الماركسية النظامية . وكان شو يتسم بصفات عديدة تستحق الاعجاب العظيم فقد كان جسورا لا يهاب شيئا على الاطلاق ، كما كان يعبر عن آرائه فى قوة ، سواء كانت هذه الاراء تروق عامة الناس أم تسوؤهم ، وكان لا يرحم فى هجومه على الذين لا يستحقون الرحمة ولكنه كان فى بعض الاحيان لا يرحم أيضا هؤلاء الذين لا يستحقون أن يكونوا ضحاياه . وباختصار يستطيع المرء أن يقول أنه أحسن كثيرا وأن يكن قد أساء بعض الاساءة ، لقد كان مدهشا كمحطم للأوثان ولكنه كان ، كأيقونة تعبد ، أقل مكانة بعض الشىء .

(١) Common Sense about the War

(٤) الفريد نورث هويتهد Alfred North White head

بدأت صلتي بهويتهد أو بوالده بتعبير أصح في عام ١٨٧٧ . فقد قيل لي إن الأرض كروية ولكني رفضت أن أصدق هذا لثقتي في شواهد الحواس . وأستدعى قسيس الابرشية ، الذي تصادف أن كان والد هويتهد ، لاقناعي . وسعت السلطات الكنسية جاهدة لكي تحملني على التفكير في أهمية الاختبار التجريبي فبدأت أحفر حفرة آملا أن أخرج منها إلى الجهة المقابلة في سطح الكرة الارضية . وعندما أخبروني أن ذلك لايجدي في شيء ، بدأت شكوكي تتجدد .

وانقطعت صلتي بهويتهد حتى عام ١٨٩٠ عندما حضرت ، كطالب جامعي مستجد محاضراته في الاستاتيكا . وطلب هويتهد من الفصل استذكار المادة ٣٥ في الكتاب المقرر . وعندئذ التفت إلي وقال : «لست بحاجة إلى استذكارها لانك تعرفها أصلا» ، فقد سبق أن أقطفتها برقمها في امتحان المنحة الدراسية قبل ذلك بعشرة أشهر . ولمس شغاف قلبي بتذكره هذه الحقيقة . ولم ينته عطفه عند هذا الحد فقد طلب إلى الطلبة الاذكياء أن يسعوا إلى التعرف بي ، لدرجة أنني تعرفت بهم جميعا في خلال أسبوع واحد ، وأصبح الكثيرون منهم أصدقاء العمر .

وفي خلال انتقالي التدريجي من طالب إلى كاتب مستقل ، استفدت من ارشاد هويتهد . وكانت نقطة التحول رسالة الزمالة التي كتبتها في ١٨٩٥ . وعندما ذهبت لأراه قبل إعلان النتيجة بيوم واحد ، انتقد عملي نقدا قاسيا بعض الشيء ، وأن كان على حق تماما في نقده . وأصابتني خيبة أمل شديدة وقررت أن أرحل عن كامبريدج دون إنتظار اعلان النتيجة في اليوم التالي . (وغيرت رأيي على كل حال عندما تناول جيمس وارد James Ward رسالتي بالمدح والثناء) . وعندما بلغني أنه قد تم اختياري

زميلا أنحت عليه زوجته باللائمة لقسوته على فى النقد ولكنه دافع عن نفسه قائلا لقد كانت تلك أخر مرة يخاطبنى فيها كتلميذ . وعندما بدأت أكون فى عام ١٩٠٠ آرا ، مستقلة - كان من حسن طالعى أننى استطعت اقناعه بأنها لاتخلو من الفائدة . وكان هذا أساسا لعملنا المشترك الذى استغرق عشر سنوات فى وضع كتاب ضخم(١) ليس لأى منا الفضل الكامل فى تأليف أى جزء منه .

وفى إنجلترا كان هويتهد يعتبر عالما رياضيا فحسب ، وترك الامر لأمريكا لتكتشفه كفيلسوف وكنا نحن الاثنين على خلاف فى آرائنا الفلسفية لدرجة أن العمل المشترك بيننا لم يعد ممكنا . وبعد أن ذهب إلى أمريكا كان طبيعيا ألا آراه إلا نادرا . وبدأت هوة الخلاف بيننا تتسع فى أثناء الحرب العالمية الأولى فقد كان يختلف معى اختلافا كليا حول دعوتى إلى السلام . ولكنه كان أكثر تسامحا منى فيما يتعلق بخلافاتنا فى هذا الموضوع .

وكنت ملوما أكثر منه - على الفتور الذى اعترى علاقات الود والصداقة التى كانت تربطنا نتيجة لهذه الخلافات .

وفى الشهور الاخيرة من الحرب قتل ابنه الاصغر فور بلوغه الثامنة عشرة . وسبب له هذا ألمًا مروعا . ولم يتمكن من الاستمرار فى عمله إلا بمجهود هائل ينطوى على ترويض النفس . وكان للالم الذى أحس به لهذه الكارثة علاقة وثيقة بتوجيه أفكاره شطر الفلسفة وبالسبب الذى حدا به إلى البحث عن وسائل للهرب من الايمان بكون ميكانيكى لا غير . وكانت فلسفته غامضة للغاية كما كان فيها الكثير مما لم أنجح فى فهمه قط . وقد كان يبدى دائما ميلا نحو «كانط» الذى لم أحسن الظن به . وعندما بدأ فى تكوين فلسفة مستقلة خاصة به كان واقعا تحت تأثير برجسون البالغ . وكان شديد التأثر بنظرية وحدة الوجود ، ويعتقد أنه عن طريق هذه الوحدة فقط يمكن للاستدلالات العلمية أن تجد لها مبررا . أما مزاجى فقد قادنى إلى الاتجاه المضاد وإنى أشك إذا

(١) Principia Mathematica

كان العقل الصرف يستطيع أن يقرر من منا كان أقرب إلى الصواب من الآخر . وقد يقول أولئك الذين يفضلون نظرته الفلسفية أنه يرمى إلى ادخال العزاء فى نفوس العاديين من البشر فى حين أهدف أنا إلى ادخال القلق فى نفوس الفلاسفة . وقد يرد من يفضل نظرتى بأنه بينما هو يدخل السرور على الفلاسفة أقوم أنا بتسلية العاديين من الناس . ومهما يكن الحال فقد افترقت سبلنا رغم بقاء الود بيننا حتى النهاية .

كان هويتهد رجلا متعدد الاهتمامات بشكل غير عادى ، فكان يذهلنى بمعرفته للتاريخ . واكتشفت ذات مرة بطريق المصادفة أنه يقرا كتاب بأولوساربى «تاريخ مجمع ترنت»[١] وهو عمل جاد للغاية ويندر العثور عليه - ويطالع فيه قبل أن يهجع للنوم . وكلما عرضت لموضوعات تاريخية استطاع دائما أن يدلى ببعض الحقائق التى تلقى ضوءا عليها كالعلاقة مثلا بين آراء بيرك السياسية ومصالحه فى حى بيوتات الاموال فى لندن The City والعلاقة بين هرطقة جون هوس[٢] وأتباعه وبين مناجم الفضة فى بوهيميا . ولم يذكر أى إنسان هذا أمامى قط حتى بضعة أعوام خلت عندما تلقيت بحث ثقة فى هذا الموضوع . ولم يكن لدى فكرة عن المصادر التى كان هويتهد قد استند إليها فى إستيقاء معلوماته . ولكنى علمت أخيرا من مستر جون كينير بيل John Kennair Peel أنه من المحتمل أن يكون هويتهد قد استقى معلوماته من كتاب الكونت لتزو «بوهيميا : وصف تاريخى أجمالى» وكان هويتهد يتسم بالدعابة الممتعة والرقة العظيمة . وعندما كنت طالبا فى الجامعة كان الطلبة يلقبونه فى تهكم « بالملاك شاروبيم» وهى تسمية يرى من عرفوه في حياته فيما بعد أنها تنطوى على عدم الاحترام اللائق به وأن كانت تناسبه حينذاك . وتنحدر عائلته من مقاطعة كنت وانصرف أعضاؤها إلى الاشتغال كقساوسة منذ الوقت الذى وطأت فيه قدم القديس أو

(١) Paolo Sarpi "History of the council of Trent"

(٢) John Huss مصلح اجتماعى فى بوهيميا اتهم بالهرطقة تطورت دعوته إلى حركة قومية ضد ألمانيا والباب فى القرن الخامس عشر .

غسطين أرض هذه المقاطعة على وجه التقريب . وفى كتاب للوسين بريس Lucien Price يسجل فيه محاوراته فى أمريكا يصف هويتهد انتشار التهريب فى جزيرة ثانيت Isle of Thanet فى مطلع القرن التاسع عشر حين جرت العادة على إخفاء البراندى والخمر فى أقبيه الكنيسة بموافقة القسيس . ويضيف هويتهد معلقا «وفى أكثر من مرة كانت جماعة المصلين تؤجل الصلاة حتى يتم إخفاء الخمور عن الانظار يساعدها فى ذلك القسيس نفسه ، عندما توافيها الاخبار وهى تنشغل بالقداس بقدوم الضباط المداهمين من بعيد على الطريق . وهذا دليل على مقدار الصلة الوثيقة التى تربط كنيسة إنجلترا بحياة الأمة» . وقد هاجر جده إليها من جزيرة شيبى Isle of Sheppy .

وإنه مما يثلج صدرى أننى قابلته لأول مرة فى جزيرة ثانيت لان لتلك المنطقة مكانة أقرب بكثير إلى شغاف قلبه من كامبريدج نفسها . وأحسست أنه ينبغى تسمية كتاب لوسين بريس بـ «هويتهد فى بارتيبوس Partivus وبارتيبوس لا تعنى كل شىء خارج إنجلترا بل كل شىء خارج جزيرة ثانيت .

وكان من عادة أن يروى فى تسليه وسرور أن جدى الذى كان يزعجه كثيرا انتشار الكاثوليكية الرومانية استحلف اخت هويتهد ألا تهجر كنيسة إنجلترا . ومبعث تسليته أن ذاك الامر كان بعيد الاحتمال للغاية وكانت آراء هويتهد فى اللاهوت تغاير اللاهوت الأصيل السائد . ولكن شيئا من جو الإبرشية استمر فى سلب مشاعره وظهر فيما بعد فى كتاباته الفلسفية .

كان هويتهد رجل متواضعا للغاية . وأقصى ماوصل إليه من فخار هو محاولته الاكيدة الاعتراف بالصفات التى تعيبه . ولم يسئه أبدا أن يروى قصصا عن نفسه تتضمن عيوبه فقد كانت هناك فى كامبريدج سيدتان شقيقتان متقدمتان فى السن كان مسلكهما يوحى بأنهما قد خرجتا لتوهما من شخصيات رواية «كرانفورد» ولكنهما كانتا فى حقيقة الامر تقدميتين بل جريئتين فيما ذهبتا إليه من آراء وكانتا تتصدران كل حركة للاصلاح . واعتاد هويتهد أن يروى وهو حزين بعض الشىء كيف أن

مظهرهما الخارجى خدعه عندا قابلهما لاول مرة وظن أنه من دواعى تسليته أن يصدمهما قليلا ولكنه عندما عرض رأيا طفيفا فى ثوريته قالتا : - «أوه يا مسز هويتهد أنه ليسرنا عظيم السرور أن نسمع منك هذا الرأى» - بطريقة أوضحت أنهما كانتا تنظران إليه حتى ذلك الحين على أنه ركيزة من ركائز الرجعية .

وكانت قدرته على التركيز فى عمله غير عادية للغاية . وذات يوم قائظ من أيام الصيف عنما كنت أمكث معه فى جرانتنر وصل صديقنا كرومتون ديفز Cromptonn Da-vies فرافقته إلى الحديقة لتحية مضيفة . كان هويتهد منكبا على حل الرياضيات فوقفنا أمامه على مسافة لا تزيد عن ياردة . وراقبناه وهو يملأ الصفحة تلو الصفحة بالرموز . ولم يرنا مطلقا - وبعد وقت انصرفنا وفى نفوسنا إحساس بالرهبة .

ويدرك الذين عرفوا هويتهد عن كثب جوانب متعددة فيه لم تظهر فى العلاقات السطحية الموقوته . فقد بدا من الناحية الاجتماعية عطوفا وعقليا لا يعرف التأثر إلى قلبه سبيلا أما فى حقيقة الأمر فقد كان الشخص الذى يتأثر - ولم يكن بكل تأكيد ذلك الوحش غير الانسانى «الرجل العقلى» وكان إخلاصه لزوجته وأطفاله عميقا متأججا ، كما كان شديد الإدراك فى كل وقت من الأوقات لاهمية الدين وفى شبابه كاد أن يتحول إلى الكاثوليكية الرومانية عن طريق تأثير الكاردينال نيومان فيه .

وأمدته فلسفته فيما بعد ببعض ماكان يصبو إليه من الدين . وكان يناجى نفسه نجوى حزينة - مثله فى ذلك مثل الآخرين الذين يعيشون حياة شديدة الخضوع للنظام . وعندما كان يفكر فى وحدته كان يتفوه بألفاظ السباب يوجهها إلى نفسه باعتبارها مسئوله عن عيوبه التى يتصور وجودها . وكانت أولى سنوات زواجه ملبدة بسحب المضايقات المالية وعلي الرغم من أنه وجد صعوبات شديدة فى تحملها إلا أنه لم يسمح لها أن تبعده عن عمله الذى كان هاما وإن لم يكن مجزيا .

وكانت تتوفر له قدرات عملية لم تجد لها مجالا كبيرا فى الوقت الذى كنت أعرفه فيه معرفة وثيقة كما كان على درجة مذهلة من الذكاء مما مكنه من شق طريقه بين

أعمال اللجان بطريقة أدهشت أولئك الذين يعتقدون أنه نظرى تماما ولا يعرف شيئا من أمور الدنيا . وكان من الممكن أن يصبح أداريا كفئا لولا عدم مقدرته على الرد على الرسائل .

وذات مرة كتبت إليه رسالة أسأله عن مسألة رياضية كنت فى حاجة إلي إجابة عنها على عجل لاضمنها مقالا كنت أكتبه ضد بوانكارى . ولم يرد على خطابى فكتبت إليه مرة أخرى . ومع ذلك لم أتلق منه رداً فلما لم يجب ابرقت إليه وعندما استمر فى التزام الصـ ت أرسلت إليه برقية خالصة الرد ولكنه تحتم على في نهاية الامر أن أسافر إليه فى برود ستيرز لكى أظفر منه بالاجابة واعتاد أصدقاؤه على هذا المسلك الشاذ بالتدريج . وعندما كان أى منهم يرد إليه رسالة فيما ندر يجتمع بقية أصدقائه لتهنئته . وكان يبرر تصرفه بقوله إنه إذا قام بالرد على الرسائل فلن يتوفر لديه وقت للعمل المبتكر . وأظن أن هذا التبرير صحيح ولا سبيل للرد عليه .

وكان هويتهد مدرسا كاملا فهو يهتم إهتماما شخصيا بكل من كان عليه أن يتعامل معهم ويتعرف على نقاط القوة والضعف فيهم وكان يستخلص من أى تلميذ له أحسن ما يقدرهذا التلميذ على القيام به . ولم يكن يلجأ إلى الكبت أو السخرية أو التعالى أو غيرها من الصفات التى يحلو لصغار المدرسين أن يلجأوا إليها . وأعتقد أنه نفث روحه فى كل الشباب القادر الكفء الذى ربطته به صلة كما نقث فى حبا صادقا باقيا .

(٥) جوزيف كونراد Joseph Conrad

تعرفت بجوزيف كونراد فى سبتمبر عام ١٩١٣ عن طريق صديقتنا المشتركة الليدى أتولين موريل Attoline Morrell . وقد كنت لعدة سنوات معجبا بكتبه . ولكنى لم أكن أجرؤ على التعرف به دون أن يقدمنى أحد إليه . وسافرت لمقابلته فى بيته بالقرب من أشفورد Ashford فى كنت Kent وأنا فى لهفة بعض الشىء . وكان أول انطباع تركه فى نفسى هو الدهشة ، فقد كان يتكلم الانجليزية فى لكنة أجنبية واضحة للغاية ، ولم يكن هناك فى مسلكه مايوحى بأثر البحر بأى حال من الاحوال . كان سيدا مهذبا بولنديا ارستقراطيا حتى أطراف أصابعه . وكان شعوره نحو البحر ونحو انجلترا شعور الحب الرومانسى الحالم - ولكنه حب على درجة من البعد تكفى لأن تترك الرومانسية الحالمة دون أن تتسخ أو تشوبها شائبة . وبدأ حبه للبحر يظهر فى سن مبكرة جدا . وعندما أخبر والديه أنه يرغب فى أن يصبح بحارا ، حثه أبواه على أن يلتحق بالبحرية النمسوية ، ولكنه كان يتوق إلى المغامرة والبحار الاستوائية والانهار الغريبة التى تحيط بها الغابات السوداء . ولم توفر له البحرية النمسوية مجالا لارضاء هذه الرغبات . وهال العائلة أن يبحث عن عمل له فى البحرية التجارية الانجليزية وحاولت أثناءه عن عزمه ولكن قناته لم تلن .

وكان - كما قد يرى أى إنسان من كتبه - أخلاقيا متشددا للغاية ، وأبعد مايكون من الناحية السياسية عن العطف على الثورات . وكنا - هو وأنا - فى أغلب آرائنا أبعد مانكون عن الاتفاق ، ولكننا كنا متفقين بشكل غريب على شىء أساسى جدا .

كانت علاقتنى بجوزيف كونراد تغاير أية علاقة لى تربطنى بأى أنسان آخر ولم أكن آراه ألا لماما ، ولفترة من الأعوام لم تطل . كنا فى الاعمال الخارجية من حياتنا نكاد نكون غرباء . ولكننا كنا نتقاسم نظرة معينة للحياة الانسانية وللمصير البشرى ، نظرة ربطتنا منذ البداية بوشائج متينة للغاية . وقد يجوز أن يغفر لى اقتطاف عبارة

وردت فى خطاب كتبه لى بمجرد أن تم تعارفنا وينبغى على أن أشعر بأن التواضع يمنعنى من اقتطاف هذه العبارة لولا أنها تعبر تماما عما كنت أحس به نحوه . وكان ماعبر عنه يطابق ماكنت أشعر به ، قال :

«إننى أحمل لك حبا عميقا ينطوى على الاعجاب ، سيظل - حتى إذا لم ترنى أبدا مرة أخرى ونسيت وجودى غدا - لايتغير وملكا لك حتى النهاية» .

وكنت أحمل الاعجاب لقصته العظيمة المروعة المسماة «قلب الظلام»[١] إعجابا يفوق إعجابى بأى عمل آخر له ، ففيها نرى إنسانا مثاليا ضعيفا بعض الشيء ينساق نحو الجنون لبشاعة الغابة الاستوائية والغربة بين المتوحشين . وتعبر هذه القصة فيما أظن تعبيرا تاما عن فلسفته فى الحياة . وشعرت - رغم أننى لا أعرف إذا كانت مثل هذه الصورة ستجد صدى فى نفسه أم لا - أنه ينظر إلى الحياة الانسانية المتحضرة ، والمحتملة من الناحية الاخلاقية ، نظرته إلى المشى المحفوف بالمخاطر فوق طبقة رقيقة من الحمم البركانية التى بردت بصورة طفيفة ، والتى يمكن أن تقذف حممها فى أية لحظة وتجرف أمامها من لايتنبه لها ، وتغوص به فى أعماق نارية ملتهبة . وكان شديد الادراك للصور المختلفة التى يتخذها جنون العواطف المشبوبة التى يتعرض لها الانسان ، وكان هذا بالذات ما جعله يؤمن إيمانا عميقا بأهمية النظام . وربما يجوز للمرء أن يقول أن وجهة نظره كانت على نقيض ما يراه روسو من أن «الانسان يولد مكبلا بالاغلال ، ولكنه يستطيع أن يصبح حرا» . وأنا أعتقد أن كونراد يرى فى هذا المجال أن الانسان يصبح حرا لا باطلاق العنان لنوازعه ، ولا بانعدام السيطرة والاهتمام ، ولكن باخضاع البواعث المنحرفة من أجل غرض مسيطر .

ولم يكن يولى النظم السياسية كثيرا من الاهتمام رغم أنه كانت لديه بعض المشاعر السياسية القوية . وكان أقوى هذه المشاعر هو حبه لانجلترا وكراهيته لروسيا

(١) The Heart of Darkness

اللذان عبر عنهما فى «العميل السرى»[١] وقد عبر عن كراهيته لكل من روسيا القيصرية والشيوعية بقوة عظيمة فى «تحت العيون الغربية»[٢] وكانت كراهيته لروسيا من ذلك النوع التقليدى السائد فى بولندا . وبلغت هذه الكراهية الحد الذى منعه من أن يعترف بفضل لأى من تولستوى أو دستيوفسكى . وقد قال لى ذات مرة أن تورجنييف هو الروائى الروسى الوحيد الذى يكن له الاعجاب .

وفيما عدا حبه لإنجلترا أو كراهيته لروسيا ، لم يكن يحفل بالسياسة كثيرا . فقد كان مهتما بالروح الانسانية الفردة وهى تجابه عدم اكتراث الطبيعة وتجابه غالبا عداوة الانسان ، كما تتعرض للصراعات الداخلية مع الأهواء ، الخير منها أو السيىء ، التى تقود نحو الدمار . وكانت مآسى الوحشة والوحدة تشغل جانبا كبيرا من فكره وشعوره . ومن أكثر قصصه تمثيلا لاتجاهاته قصة «اعصار الصين»[٣] ففى هذه القصة يقود القبطان - وهو إنسان بسيط - سفينته حتى يخلصها من برائن العاصفة فى شجاعة لا تتزعزع وإصرار متجهم . وعندما تنتهى العاصفة يكتب خطابا طويلا لزوجته ينبئها فيه بالعاصفة وفى سرده لما حدث يروى الدور الذى لعبه على أنه دور بسيط للغاية لا يعدو مجرد انجاز واجبه كقبطان ، كما يتوقع أى انسان بطبيعة الحال . ولكن القارىء يدرك من ثنايا روايته كل ما قام به ، وكل ما جسر على عمله ، وكل ما قاساه وتحمله . وقبل أن يبعث بالخطاب ، يطلع خادمه فى السفينة عليه ولكن الخطاب يظل إلى الأبد لا يقرؤه أحد على الاطلاق لأن زوجته تجده مملا يبعث على السأم فتقذف به بعيدا دون أن تطلع عليه .

والشيئان اللذان يبدو أنهما يشغلان كونراد أكثر من أى أمر أخر ، هما الوحدة والخوف مما هو غريب ، فقصته «منبوذ الجزر»[٤] تشبه «قلب الظلام» فى كونها تعالج

(١) The Secret Agent

(٢) Under Western Eyes

(٣) Typhoon

(٤) An Outcast of The Islands

الخوف مما هو غريب . وكلا الوحدة والخوف مما هو غريب يظهران فى القصة المسماة «آمى فوستر»(١) التى تؤثر فى النفس تأثيرا غير عادى . وفى هذه القصة نرى فلاحا سلافيا من الجنوب فى طريقه إلى أمريكا هو الوحيد الذى يبقى على قيد الحياة بعد تحطيم سفينته ، وتقذف به لجج الموج إلى قرية فى كنت(٢) وتخشاه كل القرية وتسىء معاملته فيما عدا «آمى فوستر» وهى فتاة قبيحة غبية تحضر له الخبز وهو يتضور جوعا ثم تتزوجه فى النهاية . ولكن الفزع مما هو غريب يستولى عليها أيضا عندما يعود زوجها الذى تشتد الحمى به إلي لغة أهل بلده ، وتنتزع طفلهما ، وتهجر زوجها فيموت وحيدا دون أهل . لكم عجبت فى بعض الاحيان لمقدار ما كان كونراد نفسه يشعر به وهو يعيش بين الانجليز من وحشة يحس بها هذا الرجل والتى كان يكبتها بجهد ارادى صارم .

كانت وجهة نظر كونراد أبعد ما تكون عن أن تتصف بالعصرية . فهناك فى العالم الحديث فلسفتان إحداهما ، تنحدر من روسو وهى تضع النظام جانبا على أنه غير ضرورى . والاخرى تجد أكمل تعبير لها فى النظم التوتاليرية (الديكتاتورية) وتؤمن بأنه لا بد من فرض النظام بالضرورة من الخارج . أما كونراد فيتمسك بالتقليد الأكثر قدما وفحواه أن النظام ينبغى أن ينبع من الداخل . وهو يحتقر انعدام النظام كما يكره النظام الذى يفرض من الخارج لا أكثر .

وألفيت نفسى فى كل هذا متفقا أتفاقا وثيقا معه . وعندما التقينا لأول مرة دار الحديث بيننا فى ألفه ومودة تزايدتا بصورة مستمرة .. وبدا أننا نغوص سويا خلال طبقة بعد طبقة من السطحيات حتى وصلنا بالتدريج إلى «النار المركزية» . وكانت تجربة لا تدانيها أية تجربة أخرى كابدتها . والتقت عيوننا وتبادلنا النظرات ونحن

(١) Amy Foster .

(٢) تقع على الساحل الجنوبى الشرقى من انجلترا .

أنصاف مرتاعين وأنصاف سكارى عندما وجدنا أنفسنا معا فى مثل هذه المنطقة ، كانت العاطفة التى كابدتها متأججة كعاطفة الحب المشبوب كما كانت فى نفس الوقت تشتمل على كل شيء فى طياتها وخرجت من عنده وأنا مذهول لا أكاد أستطيع أن أجد طريقى بين شئون الحياة العادية ومجرياتها .

ولم أر كونراد ابان الحرب أو بعدها حتى عودتى من الصين فى عام ١٩٢١ وعندما أنجبت طفلى الأول فى هذا العام ، رغبت أن يكون كونراد أباه فى العماد على قدر المستطاع دون إتمام المراسيم الرسمية . وكتبت إلى كونراد أقول «إننى أود بعد استئنذانك أن أسمى ابنى جون كونراد . لقد كان أبى يسمى جون وكذلك جدى . وكذلك جدى الكبير . وكونراد اسم أرى الافضال والمزايا تتمثل فيه» . وقبل هذا الوضع وقدم لابنى فى حينه الكأس المتبع تقديمها فى مثل هذه المناسبات .

ولم أره فيما بعد إلا قليلا ؛ لأننى كنت أعيش معظم العام فى كورنوال ، وكانت صحته فى تدهور . ولكنى تسلمت منه بعض الرسائل الساحرة أذكر منها على وجه التخصيص خطابا عن كتابى عن الصين كتب فيه يقول : «لقد كنت دائما أحب الصينيين ، حتى هؤلاء الذين حاولوا قتلى (مع بعض الناس الآخرين) فى فناء منزل خاص فى تشانتابن .. حتى الشخص (وأن كنت لا أحمل له كبير الحب) الذى سرق كل ما أملك من مال ذات ليلة فى بانكوك ولكنه قام بتفريش ملابسى ، وطواها فى عناية ونظام حتى أرتديها فى الصباح ، قبل أن يختفى فى أعماق سيام . وقد أولانى صينيون مختلفون حبهم وعطفهم الكثير ، وبالاضافة إلي أمسية قضيتها فى تبادل الحديث مع سكرتير صاحب السعادة تسنج فى شرفة فندق ، ودراسة قصيدة شعر بعنوان «الصينيون عبدة الأوثان» دراسة غير جادة أو مكترثة ، فهذا كل ما أعرفه عن الصينيين . ولكن بعد قراءة رأيك الممتع للغاية فيما يتعلق بالمشكلة الصينية أنظر نظرة ملؤها التشاؤم إلى مستقبل بلدهم» . ومضى يقول إن آرائى عن مستقبل الصين «تبعث القشعريرة فى روح الانسان وخاصة لأنى علي حد قوله وضعت آمالى فى الاشتراكية

الدولية» . وقال معلقا : «هذا النوع من الاشياء الذى لا أستطيع أن أفهم له معنى محددا . إننى لم أتمكن أبدا من أن أجد فى كتاب لأى إنسان أو فى حديث لأى انسان أى شيء مقنع بالدرجة الكافية ينهض للحظة واحدة فى وجه إحساسى المستقر فى أعماقى بالقدر الحزين الذى يحكم هذا العالم الذى يسكنه الانسان» واستمر فى قوله أنه رغم أن الانسان قد تعلم أن يطير ألا أنه لا يطير كما تطير النسور بل يطير كما تطير الخنافس «ولابد أنك قد لاحظت كيف أن طيران الخنافس قبيح ومضحك وأخرق» . وشعرت أنه فى هذه التعليقات المتشائمة يظهر حكمة أعمق مما أظهرت فى آمالى الزائفة بعض الشيء فى حل سعيد للصين . ويجب القول بأن الحوادث قد أثبتت صحة قوله حتى الآن .

وكان هذا الخطاب آخر اتصال لى به فلم أره أبدا بعد ذلك لأتحدث إليه وفى مرة رأيته عبر الطريق وهو منهمك فى حديث مع رجل لا أعرفه وهو واقف خارج باب المنزل الذى كان بيت جدتى فى يوم من الايام ، والذى تحول بعد وفاتها إلى ناد للفنون .ولم أشأ أن أقطع ما بدا حديثا جادا فانصرفت . وعندما مات بعد ذلك بوقت قصير أسفت على أننى لم أكن أكثر جرأة . أما المنزل فقد دمره هتلر وزال من الوجود . وإنى أرجح أن كونراد سيطويه النسيان . ولكن نبله المتأجج الشديد يسطع فى ذاكرتى كأنه نجم يراه الرائى من أعماق بئر . وأود أن أستطيع أن أجعل ضياءه تستطع للآخرين مثلما سطعت لى .

(٦) جورج سنتيانا George Santayana

قابلت سنتيانا لأول مرة فى «تميل روف جاردن» ذات أمسية دافئة من أمسيات يونيو عام ١٨٩٣ ، وبعد يوم قائظ يتصبب فيه العرق أصبحت درجة الحرارة لذيذة ممتعة كما غدا منظر لندن فاتنا ، كنت قد انتهيت من البحث الرياضى المقدم لجامعة كامبريدج بعد عشرة أعوام من العمل المضنى الشاق وكنت على وشك أن أشرع فى دراسة الفلسفة . وأخبرنى أخى الذى عرفت سنتيانا عن طريقه أنه فيلسوف ، ولذلك نظرت إليه فى إجلال عظيم زاد من شأنه ما كنت أحس به من تحرر وانطلاق . وكانت له حين ذاك عينان واسعتان لامعتان على قسط وافر من الجمال . وأنصت إليه باحترام لأنه بدا لى كما لو كان تجسيدا لمركب صعب - أعنى الجمع بين أمريكا وأسبانيا . وأنا لا أستطيع أن أذكر على أية حال - أى شىء من الحديث الذى دار بيننا فى تلك المناسبة .

وحين توثقت معرفتى به وجدت أن علاقتنا يربطها شىء من التعاطف وأن كان الكثير من أوجه الخلاف يشوبها . وكان يزعم لنفسه شيئا من الموضوعية التى لم تكن مخلصة تماما . ورغم أن والديه كانا أسبانيين إلا أنه شب وتربى فى بوسطن وباشر التدريس فى جامعة هارفارد . ومع ذلك - فقد كان دائب الشعور بأنه منفى من أسبانيا . وعندما اندلعت السنة الحرب الاسبانية الأمريكية وجد نفسه شديد التحمس للجانب الاسبانى . وقد لايكون فى هذا ما يدعو إلى الدهشة لأن والده كان حاكما لمانيلا . وكانت مظاهر الموضوعية وعدم التحيز التى اعتاد أن يبدو عليها تختفى كلما كان الأمر يتعلق بوطنيته الأسبانية . وكان من عادته أن يقضى الصيف فى منزل أخته فى مدينة أفيلا القديمة - وذات مرة وصف لى كيف أن السيدات هناك يجلسن بجوار نوافذهن يغازلن معارفهن من الذكور وهم يمرون عليهن ثم يكفرن بعد ذلك عن هذا الأسلوب فى تزجية وقت الفراغ بالذهاب للاعتراف . ولما

اندفعت معقبا علـى ذلك بقولى «يظهـر أن هذه الحيـاة سقيمـة ، مملـة بعـض الشىء» اعتدل وأجاب فى حدة «إنهـن يقضــين حياتهـن فـى أعظـم شيئين ؛ الحـب والدين» .

وكان من الممكن له أن يبدى إعجابه بالاغريق والايطاليين فى العصر الحديث – وحتى بموسولينى . ولكنه لم يكن فى إمكانه أن يشعر باحترام حقيقى نحو أى إنسان يأتى من شمال جبال الألب – وكان فى رأيه أن شعوب البحر المتوسط وحدها هى القادرة على التأمل – ولذلك فهى وحدها القادرة على أن تخرج فلاسفة حقيقيين . وكان ينظر إلى الفلسفات الألمانية والبريطانية على أنها محاولات عاثرة لأجناس غير ناضجة – كما كان يروقه فـى البلاد الشمالية الرياضيـون البدنيـون ورجـال الأعمال . كان صـديقا حـميما لأخى الذى لم يسـول له الـنزق والاندفـا ع بـذل مـحـاولات للولـوج إلى لغـز الألغاز الفلسفية . ولكـن موقفــه نحـوى ونحـو فلاسفة الشمال الآخرين ينم عن الاشفاق الرقيق لمحاولتنا الوصول إلى شىء أعلى وأرفع من أن نرقى إليه . ولم يسىء بحال من الأحوال إلى علاقات الود التى كانت تربط الواحد منا بالآخر لأن شعورى الوطنى الاكيد كان على قدم المساواة مع شعوره تماما .

كـان سنتيانا فى حياته الخاصــة شبيهـا جـدا بما كان عليــه فى كتبه كان دمث الأخلاق شديد الرقة والعنايـة فيمـا يقوم بــه – كمـا كـان من النـادر جـدا أن تثـور أعصابـه . وقـبل موقعة مـارن Marne بأيام قلائل – عندما بدا استيلاء الألمان على باريس وشيك الوقوع – قال لى «أظن أنه يجب على أن أذهـب إلى باريس لأن ملابسى الداخلية الشتـويـة موجـودة هناك – وأنـا لا أحب أن تقــع فــى قـبضة الألمان . وقـد تركت هناك أيضـا مخطوط – كتاب قضيت فى تأليفه العشرة الأعوام الماضية . ولكن هذا لا يهمنى كثيرا جدا» ولكن موقعة مارن وفرت عليه على كل حال ضرورة القيام بهذه الرحلة .

وذكر لى ذات أمسية فى كامبريدج بعد انقضاء فترة كنت أراه فيـها كل يوم «إننى سأذهب إلى اشبيليه غدا . فأنا أرغب فى أن أكون فى مكان لا يكبت الناس فيه عواطفهم» وفى ظنى أن هذا الموقف ليس من الغرابة فى شىء لرجل يكبت عواطفه القليلة .

ويروى فى سيرة حياته التى كتبها عن نفسه عن إحدى المناسبات التى استطا ع فيها أخى أن يثير فيه قدرا من الانفعال والشعور الدافىء إذ كان أخى يملك يختا دعا

إليه سنتيانا ليصاحبه فيه . وكان اليخت راسيا فى مكان موحل . ولم يكن هناك سبيل للوصول إليه إلا عن طريق (سقالة) ضيقة للغاية واستطاع أخى أن يعبرها فى يسر وخفة ، ولكن سنتيانا كان يخشى أن يسقط فى الوحل . ومد أخى يده ليعاونه ، ولكن لسوء الحظ اختل توازن سنتيانا لدرجة أن كليهما سقطا (بطرطشة) فى الوحل شبه السائل على ضفة النهر . ويروى سنتيانا بشىء من الرعب أن أخى استعمل فى هذا المقام ألفاظا لم يكن ليتوقع من ايرل أن يعرفها .

وكان سنتيانا يبدو دائما على قدر من التأنق بعض الشىء فقد كانت ملابسه أنيقة على الدوام كما كان يلبس حتى فى أزقة الريف أحذية برقبة ذات أزرار ، مصنوعة من الجلد اللامع . وأظن أن من الممكن لأى انسان على قدر كاف من الذكاء أن يتكهن بهذه الصفات من ثنايا أسلوبه الادبى .

وعلى الرغم من أنه لم يكن كاثوليكيا مؤمنا إلا أنه كان يحبذ بشدة الدين الكاثوليكى بشتى الطرق السياسية والاجتماعية . ولم يكن يرى هناك داعيا لأن تؤمن جماهير الناس بشىء حقيقى . فقد كان ما يرغب فيه هو أن تؤمن جماهير الناس بأسطورة ما - تستطيع أن تظفر برضائه وتحوز قبوله من الناحية الجمالية . ودعاه هذا الموقف بطبيعة الحال إلى أن يكون شديد العداء للبرستانتية مما جعل الناس الذين يميلون نحو البروستانتية يتعرضون له بالنقد والهجوم . وأدان وليم جيمس رسالته للدكتوراه ووصفها بأنها «الكمال فى العفن» . ورغم أن الرجلين اشتغلا سويا سنوات كثيرة إلا أن أحدهما لم ينجح أبدا فى أن يحسن الظن بالآخر .

ولم أستطع أبدا من ناحيتى أن أعتبر سنتيانا فيلسوفا من وجهة النظر الفنية رغم اعتقادى أنه أفاد كناقد بابداء وجهة نظر لم تعد الآن شائعة . وإلى حد ما أخفى الرداء الأمريكى الذى تدثرت به كتاباته ، طبيعة تفكيره الرجعى المتطرف . ولم يكتف كاسبانى بأن يؤيد الكنيسة سياسيا فى سائر المحاولات التى تبذلها لتدعيم التقاليد العتيقة فى ذلك البلد - ولكنه كفيلسوف رجع إلى حد كبير إلى المدرسية السائدة فى القرن الثالث عشر . ولم يعرض هذا المذهب بصراحة كما فعل أتباع القديس توماس الجدد - ولكنه

أشار إليه تحت أسماء مختلفة - حتى يعمى على القارىء فلا يعرف المصادر التى نبع منها تفكيره . وليس من العدل القول بأن آراءه هى نفس آراء المدرسيين فى القرون الوسطى تماما - فقد أخذ من أفلاطون أكثر مما أخذ من القديس توماس . ولكنى أظن أنه لو قدر له وللقديس توماس أن يلتقيا - لوجدا أنفسهما على اتفاق وتفاهم كبير للغاية .

وكتاباه الرئيسيان فى الفلسفة البحتة هما «حياة العقل»(١) الذى نشر فى عام ١٩٠٥ و «مناطق الوجود»(٢) الذى نشر بين عامى ١٩٢٧ و ١٩٤٠ . ويعالج سنتيانا حياة العقل تحت خمسة رؤوس موضوعات هى العقل فى الذوق العام والادراك Common Sense - المجتمع - الدين - الفن - العلم وأنا شخصيا لا أرى أن مثل هذا الكتاب يستميل القارىء نحو هذا الضرب من الحياة الذى يعتبره سنتيانا عقليا - فهو كتاب هادىء أكثر مما ينبغى ينظر إلى الأشياء نظرة استعراض لها ، كما أنه لا ينبض بالعاطفة ، العاطفة التى تبدو لى على أقل تقدير - رغم أنه قد يتعين إخضاعها والتحكم فيها - عنصرا جوهريا فى أية حياة تستحق أن نحياها . وكتابه «مناطق الوجود» الذى كان آخر عمل فلسفى هام له - يتناول على التوالى موضوعات الجوهر والمادة والحقيقة والروح . وفى هذا الكتاب شأنه فى ذلك شأن كتبه الفلسفية الأخرى لايعنى سنتيانا بأن يسوق فيه الأدلة والبراهين . والكثير مما يقول وخاصة فيما يتعلق بالجوهر يتجاهل الكثرة من الأبحاث التى يعتبرها معظم الفلاسفة المحدثين هامة ومرتبطة بالموضوع . فقد أغفل المنطق الحديث الذى ألقى ضوءا جديدا كاشفا على مشكلة الكليات القديمة Universals التى شغلت جانبا عظيما من اهتمام المدرسيين . ويبدو أن كتاب سنتيانا «منطقة الجوهر»(٣) يفترض سلفا - بمعنى من المعانى على أية حال - حقيقة الكليات . أنه لمن النزق والتهور القول بأن مذهبه باطل ، ولكنها صفة من صفات سنتيانا أن

(١) The Life of Reason

(٢) Realms of Being

(٣) Realm of Essence

يفترض فى هدوء صحة هذا المذهب دون أن يعنى أو يأبه بتقديم أية أدلة لاثباته .

وعلى الرغم من أنه قضى معظم حياته العاملة كأستاذ للفلسفة فى هارفارد إلا أن أهميته من الناحية الأدبية تفوق أهميته من وجهة النظر الفلسفية . وفى رأيى أن أسلوبه فى الكتابة لا يمثل تماما ما ينبغى أن يكون عليه الأسلوب . فأسلوبه مثل أحذيته الطويلة الرقبة . المصنوعة من الجلد للامع .. ناعم ومصقول أكثر مما ينبغى . والانطباع الذى تتركه قراءة كتبه فى الإنسان هو الاحساس بأنه يسبح مع تيار نهر ينساب فى نعومة ورقة – نهر عريض جدا لدرجة أنك من النادر أن ترى أيا من ضفتيه . ولكن كلما لاح من وقت لآخر لسان أرض بارز فى الماء أصبت بالدهشة لتصورك أن هذا البروز جديد دون أن تنبه إلى وجوده أصلا ، والسبب فى ذلك عدم شعورك بحركة التيار التى تجرفك فى طريقها . وإنى لاجد نفسى عند قراءة كتبه موافقا على كل جملة أطالعها بطريقة تشبه طريقة من يسير أثناء النوم . ولكنى أعجز تماما بعد أن أفرغ من قراءة بضع صفحات أن أذكر شيئا مما قرأت .

ورغم ذلك فإنى مدين له بأفضال فلسفية معينة ، وفى شبابى كنت أتفق مع ج . ا . مور G.E. Moore فى الاعتقاد بموضوعية الخير والشر .. ولكن نقد سنتيانا الذى تضمنه كتابة «رياح المذهب»(١) كان السبب الذى دعانى لهجران هذا الرأى رغم أننى لم أفلح أبدا فى أن أصل إلى ماوصل إليه من ارتياح واستقرار .

كتب سنتيانا فى النقد الأدبى – وبعض ما كتب ممتاز . كان له كتاب اسمه «ثلاثة شعراء فلاسفة(٢) تناول فيه لوكريشس ودانتى وجوته . وقد ساءه بعض الشىء أننى قلت أن معالجته للشاعرين الايطاليين تفوق معالجته للشاعر الألمانى . وبدت لى كتابته عن جوته ضربا من اللف والدوران يتصارع فيه على الدوام رضاه الفكرى عن جوته مع

(١) Winds of Doctrine

(٢) Three Philosophical Poets

اشمئزازه النابع من مزاجه الخاص . واستهوانى اشمئزازه أكثر مما استهوانى رضاه ووددت لو أنه أطلق لهذا الاشمئزاز العنان .

وكان يحمل لانجلترا قدرا عظيما من الحب والمودة . ويستطيع أى شخص انجليزى وطنى أن يطالع كتابه «مناجيات فى انجلترا»[١] فى لذة وحيور . وكتب قصة مثل فيها أخى (الذى كان سانتيانا يكن له ودا كبيرا) دور البطل - كما كتب سيرة حياته فى أجزاء عديدة ترجع أهميتها أساسا إلى تصوير الصراع الدائر بين مزاجة الاسبانى والبيئة المحيطة به فى بوسطن . وكان من عادته أن يزهو بأن أمه الأرملة التى تعيش فى بوسطن كانت تشيع القلق فى نفوس أصدقائها من أهل نيوانجلاند لعدم قيامها بعمل أى شىء يشغلها على الاطلاق . وعندما جاء إليها هؤلاء الأصدقاء على هيئة وفد يستفسرون منها عن الطريقة التى كانت تصرف بها وقتها أجابت «اذن سأخبركم - فى الصيف أحاول أن أوفر لنفسى جوا باردا وفى الشتاء أحاول أن أستمتع بالدفء» . وكان إعجابه بهذه الإجابة يمنعه من أن يشعر أنه مستريح بين أهله وذويه فى نيوانجلاند .

وكتب كثيرا عن الثقافة الأمريكية التى لم يكن يحسن الظن بها وألقى خطابا فى جامعة كاليفورنيا أسماه «التقليد المهذب فى الفلسفة الأميريكية»[٢] فحواه أن الحياة الأكاديمية الأمريكية غريبة عن روح أمريكا التى وصفها بأنها قوية فتية ولكنها مادية ، تجارية . وقد بدا لى خلال تجوالى فى الجامعات الأمريكية أنها ستصبح أكثر ملاءمة وانسجاما مع روح هذه البلاد لو أنها اتخذت ناطحات السحاب مقرا لها بدلاً من الابنية شبه القوطية التى تحيط بأرض الجامعة . وكانت هذه وجهه نظرا سنتيانا أيضا ولكنى كنت أشعر على أية حال بشىء من الخلاف بيننا فقد كان سنتيانا يجد متعته فى

(١) Soliloquies in England

(٢) The Genteel Tradition in American Philosophy

الابتعاد والنظر إلي ما حوله نظرة ملؤها الاحتقار فى حين أننى كنت أجد أن هذا الموقف – عندما تضطرنى الظروف إليه – أليم للغاية . كان الابتعاد والاحتقار السهل عيبين فيه وبسببهما استحال شخصا من الصعب لانسان أن يحمل له الحب وأن أمكن أن يكن له الاعجاب .

ولكن العدل وحده يقتضى مقارنة حكمى عليه بحكمه على – فهو يقول : «وحتى حين تكون بصيرة راسل أشد ما تكون نفاذا – فإن نفاذ رؤيته وحده السبب فى تركيز هذه البصيرة أكثر مما ينبغى . فهو يرى شيئا واحدا فى وقت واحد بجلاء غير عادى أو يرى جانبا واحدا من التاريخ أو السياسة ولكن إدراكه الواضح الجلى لهذا العنصر يعصب عينيه فيمنعه من أن يرى بقية العناصر» وأنه لمن الغرابة بمكان أن يوجه إلى تهمه المحافظة الدينية وسأترك المستمع لكى يصدر حكمه بنفسه فى هذا الصدد .

ويبدو أن سنتيانا لم يشعر على الاطلاق أنه لو قدر له النجاح فى نشر مبدأ الولاء للماضى الذى يعتنقه لأدى هذا إلى خلق عالم يدب فيه الموت – لا يكتب لأى شيد طيب النماء فيه . ولو كان يعيش فى زمن جاليليو لأوضح هوان شأنه من الناحية الأدبية بالنسبة إلي لوكريشس . ولكن لوكريشس كان يقدم للعالم مذهبا قديما تمتد جذوره إلى عدة قرون . وإنى أشك فى أن أعمال ديمرقريطس وأبيقور التى تضمنت هذا المذهب عندما كان جديدا كانت تبعث على الرضا من الناحية الجمالية كما تبعثه قصيدة لوكريشس وقد يكون من حظهما فقدان أعمالهما مما يجعل رأيى لايعدو أن يكون ضرب من الحدس والتخمين . والذى لا يحتمل الشك هو أن الجديد لا يرقى أبدا فى نضجه إلى مرتبة القديم . ولذلك فإن عبادة مبدأ النضج لا تتمشى مع التفوق والامتياز الجديد . ولهذا السبب فإن سنتيانا أديب أكثر منه فيلسوف .



(٧) سيدنى وبياتريس وب Sidney and Beatrice Webb

كان سيدنى وب وزوجته بياتريس اللذان عرفتهما عن كثب لعدد من الاعوام وشاركتهما السكن بعض الوقت ، أكثر زوجين اكتمالا وقربا والتصاقا قدر لى أن أخالطهما في حياتى على الاطلاق . ولكنهما رغم ذلك كانا يكرهان النظر إلى الحب أو الزواج بمنظار رومانسى . فقد كانا يعتبران الزواج تنظيما اجتماعيا يهدف إلى ملائمة الغريزة فى إطار قانونى . وفى خلال السنوات العشر الأولى من زواجهما كان من عادة مسز وب أن تقول بين حين وآخر : «الزواج – كما يقول سيدنى دائما سلة مهملات تلقي فيها العواطف» . وفى السنوات التالية حدث تغيير طفيف . فقد اعتادا بوجه عام أن يدعوا زوجين لقضاء عطلة نهاية الأسبوع معهما ، وأن يخرجا بعد ظهر يوم الأحد للمشى النشيط يرافق سيدنى أثناءه السيدة ، وتصحب بياتريس السيد . وعندما يصل سيدنى إلي نقطة معينة أثناء المشى نجده يقول : إننى أعلم تماما ما تقول بياتريس فى هذه اللحظة . أنها تقول : «أن الزواج كما يذكر سيدنى دائما سلة مهملات العواطف» . ولا يعرف أحد على وجه اليقين إذا كان سيدنى قد فاه بهذه العبارة حقا أم لا .

كنت أعرف سيدنى قبل زواجه . ولكنه كان حينذاك دون ما أصبح عليه بعد الزواج بكثير . وكان تعاون كل منهما مكملا للآخر تماما . وأعتدت أن أفكر – رغم ما قد يكون فى هذا من تبسيط للأمور يتنافى مع الواقع – أنها كانت توحى إليه بالأفكار التي يقوم هو بنقلها إلى أعمال . وربما كان سيدنى أكثر الرجال اجتهادا ممن عرفتهم فى حياتى فعندما كانا يكتبان كتابا عن الحكم المحلى ، كانا يبعثان منشورات دورية إلى سائر موظفى الحكم المحلى فى طول البلاد وعرضها للاستفسار عن بعض النقاط ، ويوضحان للموظف المختص أنه يحق له قانونا شراء كتابهما الوشيك الصدور من الاموال المخصصة للأغراض المحلية . وعندما قمت بتأجير منزلى لهما . كان ساعى البريد – وهو اشتراكى متحمس – فى حيرة من أمره لايعرف إذا كان القيام بخدمتهما

شرفا له أم مدعاة للبرم والضيق لما كانت تقتضيه هذه الخدمة من تسليم ألف رد يوميا على منشوراتهما . وقد بدأ وب حياته أصلا ككاتب من الدرجة الثانية فى الخدمة المدنية . ولكنه نجح عن طريق العمل الشاق الجبار أن يحصل على ترقية إلى الدرجة الأولى . وكان رجلا جادا بعض الشىء ، لا يحب المزاح فى الموضوعات التى يعتبرها مقدسة مثل النظريات السياسية . وفى إحدى المناسبات قلت له أن للديموقراطية ميزة واحدة على الأقل تتلخص فى أن عضو البرلمان لايمكن أن يكون أكثر غباوة من نافبيه ، لأنه كلما ازدادت غباوته ، كان اختيار الناخبين له دليلا على غباوة أكبر . فتضايق وب ضيقا شديدا وقال بطريقة لاذعة : «هذا هو نوع المجادلات الذى لا أحبه» .

كانت دائرة اهتمامات مسز وب أوسع من تلك التى كانت تستهوى زوجها وكانت عميقة التدين دون أن تنتمى إلى أى نوع من أنواع الدين المعروفة بالأصالة والرسوخ Orthodoxy غير أنها كاشتراكية كانت تفضل كنيسة انجلترا Church of England لأنها تنظيم من تنظيمات الدولة كما كانت شديدة الاهتمام بالآدميين كأفراد دون أن يقتصر اهتمامها على الأوقات التى يمكن أن يكونوا فيها ذوى فائدة ونفع فحسب وهى واحدة من تسع أخوات هن بنات رجل عصامى اسمه بوتر Potter جمع جل ثروته عن طريق بناء الاكواخ للجيوش التى حاربت فى القرم . كان بوتر من اتباع هربرت سبنسر . وكانت مسز وب نتاجا ملحوظا لتطبيق نظريات ذلك الفليسوف فى التربية . وأنه لمما يدعو للاسف أن أمى التى كانت جارة لها فى الريف ، وصفتها بأنها فراشة اجتماعية . ولكن يداعبنى الرجاء فى أن تغير أمى هذا الحكم لو أنها قد عرفت مسز وب فيما بعد .. وعندما بدأت تهتم بالاشتراكية ، قررت أن تستعرض الفابيين وتختار من بينهم ، فاستعرضت بوجه خاص الثلاثة الأكثر تفوقا وامتيازا وهم : وب ، وشو ، وجراهام ولاس Graham وكان اختيارها أشبه ما يكون بحكم باريس وأن كان الجنس فى هذه الحالة معكوسا ، ووقع اختيارها على سيدنى

على أنه نظير أفروديث[١] .

كان وب يعتمد اعتمادا تاما على كسب قوته فى حين أن بياتريس ورثت عن أبيها ثروة تكفل لها الرغد . وكان لبياتريس - على نقيض سيدنى - عقلية الطبقة الحاكمة وتفكيرها . وحين رأيا أن لديهما من المال ما يكفل لهما العيش دون حاجة إلى الكدح فى سبيل الرزق ، قررا أن يقفا حياتهما على الدراسة والبحث ، وفروع الدعاية الراقية وأصابا فى كلا هذين المجالين نجاحا مذهلا . وتشيد كتبهما بما بذلاه من جهد مضن وعمل شاق كما يشهد انشاء مدرسة الاقتصاد The School of Economics على مهارة سيدنى وحذقة . وأنا لا أظن أن قدرات سيدنى كانت ستؤتى ثمارها على هذا النحو لو لم يعضدها ثقة بياتريس بنفسها ، ومساندتها ، وسألتها ذات مرة إذا كانت قد كابدت في حداثتها ، فى أى وقت من حياتها ، شعورا بالخجل أو الحياء فأجابت بقولها : آه . لا . كنت أقول لنفسى إذا استشعرت فى أى وقت من الأوقات جنوحى نحو الانكماش والجبن ، وأنا أدلف إلى حجرة مليئة بالناس ، أنت أذكى فرد فى عائلة من أذكى العائلات المنتمية إلى أذكى طبقة فى أذكى أمة فى العالم . فماذا يفزعك أو يخيفك إذن

وكنت أحمل لمسز وب الود والاعجاب رغم اختلافى معها فى كثير من الأمور الهامة جدا . كنت معجبا أولا وقبل كل شىء بقدراتها الهائلة الجبارة كما كنت معجبا إلى جانب ذلك بكمالها واستقامتها فقد كانت تعيش من أجل أهداف عامة ، دون أن يجرفها الطموح الشخصى مطلقا - رغم أنها لم تكن تخلو منه - عن هذه الأهداف وكنت أودها لأنها كانت صديقة دافئة عميقة على من تحمل لهم ودا خاصا . ولكنى كنت اختلف معها فى الدين والاستعمار ، وعبادة الدولة التى كانت جوهر الفابية . لقد

(١) يشير راسل هنا إلى الأساطير الاغريقية . وفيها تتنازع ثلاث ربات على لقب إلهة الجمال فتحتكم الربات الثلاث إلى باريس ليختار واحدة من بينهن ويختار باريس من بينهن فينوس أو افروديت . ويقول رسل أن الجنس فى حالة مسز وب معكوس لأنها هى التى قامت بعملية الفرز والاختيار من بين سيدنى وب ، وبرنارد شو ، وجراهام والاس .

أفضت هذه العبادة بعائلة وب ، وبشو أيضا إلى ما اعتقدت أنه تسامح غير لائق نحو موسوليني وهتلر ، كما أنها أفضت فى نهاية الأمر إلى الاطراء الزائف المضحك بعض الشىء للحكومة السوفيتية .

ولكن ليس للانسان جانب واحد فحسب لا يتعداه . ولا تستثنى من ذلك عائلة وب نفسها . فقد أبديت ذات مرة ملاحظة لشو مفادها أن وب بدا لى أنه يفتقر بعض الشىء إلى المشاعر الرحيمة . وأجابنى شو «لا أنت مخطىء تماما . فقد كنت ذات مرة أستقل مع وب تراما فى هولندا . وكنا نأكل البسكوت من حقيبة نحملها معنا حين دخل عربة الترام مجرم يرسف فى الاغلال ، يقتاده رجال الشرطة . فابتعد عنه الركاب جميعا فى رعب وفزع . ولكن وب ذهب إلى السجين وقدم له البسكوت» . وإنى أذكر هذه القصة كلما وجدت نفسى تجنح إلى انتقاد أى من وب وشو بشكل لا يستحقانه .

وكان هناك أناس تحمل لهم عائلة وب الكراهية . فقد كانا يكرهان ويلز لأن مسلكه كان يسيء إلى أخلاق مسز وب الفيكتورية الصارمة ، ولأنه كان يسعى إلى إزاحة وب عن عرش الجمعية الفابية التى كان يرأسها كما كان يكرهان رامزى ماكدونالد Ramsay Mac Donald منذ بادىء الأمر : وكان أقل شىء عدائى سمعته عنه على الاطلاق من أى منهما عند تكوين أول حكومة عمالية . فقد قالت عنه مسز وب أنه ليس زعيما لكنه بديل صالح لزعيم .

وكان تاريخهما السياسى غريبا بعض الشىء . ففى أول الامر كانا يعملان مع المحافظين لأن آرث بالفور Arthur Balfour راق مسز وب بسبب استعداده لزيادة مخصصات مدارس الكنيسة من الخزانة العامة . وعندما سقطت حكومة المحافظين فى عام ١٩٠٦ بذل وب وزوجته جهدا طفيفا ، غير فعال للتعاون مع الأحرار . ولكن بدا لهما أنهما قد يرتاحان كاشتراكيين فى جو حزب العمال أكثر من ارتياحهما فى أى جو آخر . وفى السنوات الأخيرة من حياتهما ، أصبحا عضوين يدينان بالولاء لهذا الحزب .

واستمرت مسز وب تدمن الصيام لعدد من الأعوام لبواعث بعضها صحى ،

وبعضها دينى . وكانت ترفض أن تتناول طعام الأفطار ، وتكتفى بتناول عشاء خفيف للغاية . وكانت وجبتها الرئيسية الوحيدة هى الغداء وكثيرا ما كانت تدعو عددا من الناس الممتازين المشهورين لتناول طعام الغداء فى بيتها . ولكنها كانت تحس بالجوع الشديد لدرجة أنها كانت تسبق كل ضيوفها وتشرع فى الاكل بمجرد أن يعلن الخدم إعداد المائدة وكانت تؤمن مع ذلك بأن التضور جوعا يزيدها روحانية . وأخبرتنى ذات مرة أن التضور جوعا يجعلها تستمتع برؤيا بديعة . فأجبتها بقولى : نعم إذا أكلت أقل مما ينبغى فسترين رؤيا . وإذا أفرطت فى الشراب فسترين ثعابين» . وأخشى أن تكون قد أعتبرت هذه الملحوظة استخفافا أو استهتارا لا يغتفر ولم يشاركها وب الجانب الدينى من طبيعتها . ولكنه لم يناصب شعورها الدينى العداوة فى قليل أو كثير رغم ما كان يسبب له هذا الشعور من مضايقات أحيانا . وعندما كنت أمكث معهم فى فندق فى نورماندى ، كان من عادتها أن تلزم حجرتها لانها لم تكن تستطيع أن تتحمل منظرنا المؤلم ونحن نتناول الافطار . وكان سيدنى على كل حال يهبط الدرج لاحضار أرغفة الخبز والقهوة . وفى أول صباح لها بالفندق ، أرسلت مسز وب رسالة عن طريق الخادمة تقول فيها «ليست (لدينا) زبدة يفطر بها سيدنى . وكان أستعمالها لكلمة «لدينا» الدالة على الجمع مصدرا لمتعة أصدقائها .

كان كلاهما لا يؤمنان بالديموقراطية أساسا ، ويعتبران أن مهمة السياسى تتركز إما فى خداع عامة الناس أو ارهابهم . وأدركت جذور مفهوم مسز وب عن الحكم عندما رددت أمامى وصف والدها لاجتماعات المساهمين . فالوظيفة المعترف بها لمديرى الشركات المساهمة فى هذه الاجتماعات هى وقف المساهمين عند حدهم ، وكانت فكرتها عن علاقة الحكومة بالناخبين شبيهة بهذا .

وكانت القصص التى يرويها والدها عن حياته السبب فى أنها لم نشعر باحترام كبير نحو العظماء . فبعد أن أتم والدها بناء أكواخ للمقر الشتوى للجيوش الفرنسية فى القوم، توجه إلى باريس ليحصل على مستحقاته ، ولما كان قد أنفق كل رأسماله

تقريبا فى اقامة هذه الأكواخ ، أصبح حصوله على مستحقاته أمرا هاما بالنسبة له . ولكن على الرغم من اعتراف كل واحد في باريس بأحقيته فى الدين ، فقد تعطل صدور الشيك وأخيرا قابل اللورد براسى Brassey الذى كان قد جاء فى مهمة شبيهة بهمته . وعندما شرح له الصعوبات التى تجابهه ضحك منه براسى وقال . «يا زميلى العزيز» ، أنت لا تعرف كيف تصرف أمورك يجب عليك أن تعطى الوزير خمسين جنيها وخمسة جنيهات لكل واحد من أتباعه» . ونفذ مستر بوتر هذا بالفعل فوصله الشيك فى اليوم التالى .

ولم يكن سيدنى يتورع من استعمال أساليب المكر والخديعة التى يعتبرها البعض مجافية لأحكام الضمير . فقد أخبرنى مثلا أنه حين كان يرغب فى حمل لجنة من اللجان على الموافقة على إحدى النقاط التى تعترض عليها الأغلبية ، كان يعمد إلى صياغة القرار بحيث ترد فيه النقطة التى يحتدم حولها الخلاف مرتين ، ثم يدخل فى مناظرة طويلة بشأن ورود هذه النقطة لأول مرة . وأخيرا يتكرم بالاستسلام فى ذوق ولطف . والنتيجة التى انتهى إليها هى أنه فى تسعة أعشار الحالات لم يكن أحد يلاحظ ورود نفس النقطة فيما بعد فى نفس القرار .

لقد عمل سيدنى وزوجته الشىء العظيم فى سبيل اقامة العمود الفقرى الفكرى للاشتراكية البريطانية . ويكاد الدور الذى لعباه أن يكون نفس الدور الذى لعبه أتباع بنشام من قبل فى مؤازرة الثوريين الراديكاليين . وكانت عائلة وب تشترك مع أتباع بنثام فى الاتصاف بنوع من الجفاف والخلو من العاطفة والايمان بأن مكان العواطف هو سلة المهملات . ولكن أتباع بنثام وعائلة وب على حد سواء لقنوا مبادئهم لاشياعهم المتحمسين واستطاع بنثام وروبرت أوين Robert Owen شأنهما فى ذلك شأن وب وكيرهاردى Keir Hardy أن ينجبا ذرية فكرية متزنة تماما . ولا ينبغى لانسان أن يتطلب من كل واحد سائر السجايا التى من شأنها أن تزيد من قيمة البشر . ويكفى الإنسان أن يتحلى ببعض هذه السجايا وبهذا المعيار يجتاز سيدنى وزوجته الاختبار . والذى لا شك فيه أنه لولاهما لاصبح حزب العمال البريطانى أشد عنفا وأكثر اضطرابا مما هو

عليه الآن .. وقد تدثر بردائهما بعدهما ابن أخت مسز وب السير ستافورد كريبس Stafford Cripps وإنى أشك فى أن الديمقراطية البريطانية كانت ستستطيع بدونهما أن تتحمل بنفس الصبر السنوات الصعبة الشاقة التى مازلنا نمر بها حتى الان .



(٨) اللورد جون رسل Lord John Russell

ولد جدى الذى أذكره بوضوح وجلاء - فى الثامن عشر من أغسطس عام ١٧٩٢- بعد أسبوعين من مولد الشاعر شيلى الذى انتهت حياته عام ١٨٢٢ . وفى اللحظة التى ولد فيها جدى كانت الثورة الفرنسية قد بدأت لتوها فى الاندلاع - وفى الشهر الذى رأى فيه النور - سقطت الملكية . وكان قد بلغ من العمر شهرا واحدا عندما ادخلت مذابح سبتمبر الرعب والفزع فى قلوب الملكيين الانجليز . وبدأت موقعة فالمى Valmy الحرب التى شنتها الثورة على الرجعية - والتى استمر أتونها مندلعا مدى خمس وعشرين سنة . كان موقف جدى من هذه الحرب - كما هو خليق بأحد أتباع فوكس[1] - أقرب مايكون إلى من يطلق عليه الآن اسم «الدائر فى فلك اليسار» . واشتمل كتابه الأول (الذى لم ير طريقة إلى النشر) اهداء ساخرا إلى بت الذى كان لايزال حينذاك رئيسا للوزارة . وفى أثناء حرب نابليون ضد أسبانيا والبرتغال - سافر إلى أسبانيا - ولكن دون أن تعتمل فيه رغبة لمحاربة نابليون . وزار نابليون فى البا - وشد الرجل العظيم أذنه كما كانت عادته . وعندما عاد نابليون من البا ألقى جدى الذى كان قد مضى على عضويته فى البرلمان عامان - خطابا يحض فيه على عدم مقاومته . ولكن الحكومة التى كانت فى أيدى التوريز (المحافظين) حينذاك - قررت غير ذلك على كل حال . فوقعت معركة واترلو نتيجة لذلك . وكان أعظم عمل قام به جدى هو اصدار قانون الاصلاح عام ١٨٣٢ الذى وضع بريطانيا على الطريق نحو الديموقراطية الكاملة . وعارض المحافظون هذا القانون معارضة عنيفة للغاية كادت أن تفضى إلى حرب أهلية . وكان الاصطدام فى هذا الوقت بمثابة المعركة الحاسمة بين الرجعيين والتقدميين فى

(١) Charles James Fox (١٧٤٩ - ١٨٠٦) : أحد ساسة حزب الويجز (الأحرار) المعروفين بتأييدهم للثورة الفرنسية .

انجلترا . ولم ينقذ انجلترا من نشوب الثورة فيها سوى تحقيق النصر السلمى فى هذه المعركة – وقد كان لجدى الفضل الاكبر فى إحراز هذا النصر . وبعد ذلك اشتغل بالسياسة لفترة طويلة وتولى رئاسة الوزارة مرتين – ولكن الفرصة لم تسنح له مرة ثانية أن يتولى القيادة الحاسمة فى وقت شدة عصيبة . وفى السنوات الأخيرة من عمره – كان معتدلا فى تحرره فقط – إلا فيما يتعلق بأمر واحد يتلخص فى كراهيته للأجحاف الناجم عن التفرقة المبنية على أساس دينى . ففى شبابه كان سائر الذين لا ينتمون إلى عضوية كنيسة إنجلترا يعانون من الاضرار السياسى الجسيم بمصالحهم . وكان اليهود بوجه خاص يستبعدون من البرلمان بمجلسيه – ومن وظائف كثيرة عن طريق قسم لا يستطيع أن يؤديه غير المسيحيين . ومازلت أتذكر بجلاء أننى رأيت حشدا كبيرا من الناس الذين ارتسمت على وجوههم ملامح الجدية يجتمعون على الحشائش المنبسطة أمام منزلنا يوم ٩ مايو ١٨٧٨ – قبل أن تفيض روحه بأيام قلائل . وكان الحشد يهتف – وتساءلت بطبيعة الحال عن السر فى هتافه فعلمت أنهم زعماء المنشقين غير التابعين لكنيسه انجلترا – جاءوا يهنئونه على مرور خمسين عاما على أول انتصار عظيم له : وهو إلغاء قوانين الاختيار والمجالس Test and corporation Acts التى نستبعد الخارجين على كنيسة انجلترا من الوظائف والبرلمان . وغرست مثل هذه الأحداث ودراستى للتاريخ التى ألقت ضوءا عليها فى نفسى الحب الراسخ للحرية المدنية والدينية . وبقى هذا الشعور حيا فى نفسى على الرغم من توالى الأنظمة الديكتاتورية المختلفة التى أغرت الكثيرين من أصدقائى من اليمين أو اليسار على حد سواء ..

ونظرا لوفاة والدى – عشت فى بيت جدى خلال السنتين الأخيرتين من حياته . وكانت حالته الصحية قد تدهورت كثيرا حتى منذ بداية هذا الوقت . ومازلت أذكره وهو يتحرك خارج البيت على كرسى بعجلات – كما أنى أذكره وهو جالس يقرأ فى حجرة الجلوس الخاصة به . وأنا أذكر – وأن كانت ذاكرتى لا يعول عليها بطبيعة الحال – أنه كان مشغولا طيلة الوقت بقراءة التقارير البرلمانية على هيئة مجلدات تزدحم بها جدران

قاعة واسعة . وكان جدى فى ذلك الوقت الذى أعود بذاكرتى إليه يفكر فى عمل يقوم به بشأن الحرب الروسية التركية فى عام ١٨٧٦ . ولكن التدهور الذى أصاب صحته جعل هذا متسحيلا .

وفى الحياة العامة كثيرا ما كانت توجه إليه تهمة البرود والخلو من العواطف . ولكنه كان فى بيته حانيا ، محبا ، شفيقا إلى أقصى حد . وكان يحب الأطفال - وإنى لا أذكر مناسبة واحدة زجرنى فيها كى أتوقف عن إحداث الجلبة أو قال أيا من تلك الاشياء الناهرة والناهية الآمرة التى اعتاد الناس الكبار فى السن أن يوجهوها إلى الاطفال الصغار . وكان يتقن اللغويات فلم يجد أدنى مشقة فى إلقاء الخطب باللغة الفرنسية أو الاسبانية أو الايطالية . واعتاد أن يستغرق فى ضحك شديد وهو جالس يقرأ «دون كيشوت» فى لغتها الاصلية . وكان يحمل كسائر الاحرار من أهل زمانه الحب الرومانسى الحالم لايطاليا . وأهدته الحكومة الايطالية تمثالا يمثل ايطاليا معبرة بذلك عن امتنانها لخدماته فى سبيل قضية الوحدة الايطالية . كان هذا التمثال قائما على الدوام فى حجرة جلوسه - وكنت أجد فيه أعظم متعة وتسلية .

كان جدى ينتمى إلى نوع من الناس انقرض الآن تماما - ذلك النوع من المصلحين الأرستقراطيين الذين يستمدون حماستهم من أعمال الأقدمين من الاغريق والرومان من أمثال ديمستينوس Demosthenes وتاسيتوس Tacitus أكثر من استلهامهم أى مصدر حديث . كانوا يعبدون إلهة اسمها «الحرية» ولكن ملامحها كانت غامضة مبهمة بعض الشىء . وكانوا يعتقدون أيضا فى وجود شيطان رجيم اسمه «الاستبداد» الذى كانت قسماته تتضح بصورة أكبر - ويتمثل فى الملوك والقساوسة ورجال البوليس خاصة إذا كانوا من الاجانب . ولقد الهم هذا المذهب المفكرين من الثوار فى فرنسا وأن كانت مدام رولان Madame Roland قد اكتشفت وهى على المقصلة بساطة هذا المذهب المفرطة وسذاجته . إن هذا المذهب هو الذى ألهم بيرون وقاده إلى أن يحارب فى بلاد اليونان - كما ألهم مازينى وغاريبالدى والمعجبين بهم من

الانجليز . وكان هذا المذهب يلبس ثياب الادب والشاعرية والرومانسية دون أن تشوبه على الاطلاق الحقائق الاقتصادية القاسية التى تسود سائر التفكير السياسى الحديث . كان جدى فى طفولته يتلقى العلم على يدى مرب اسمه الدكتور كارتريت Carturight قام باختراع نول جديد كان أحد العوامل الرئيسية فى قيام الثورة الصناعية . ولم يعلم جدى أبدا أنه قد اخترع هذا النول - ولكنه كان يحمل له الاعجاب للغته اللاتينية المتأنقة - وسمو عواطفه الأخلاقية إلى جانب كونه أخا لأحد الثوريين من مثيرى القلاقل والاضطرابات المعروفين .

كان جدى يدين بالديموقراطية كمثل أعلى ولكنه لم يكن من رأيه التعجيل بالوصول إليها بأى حال من الأحوال - فقد كان يفضل الامتداد التدريجى لحق الانتخاب . ولكنى أظن أنه كان مقتنعا بأنه مهما قدر لحق التصويت أن يمتد فستبقى زعامة الأحزاب الانجليزية المصلحة قاصره على كبار العائلات المنتمية إلى حزب الاحرار (الويجز) وأنا لا أعنى أنه كان مقتنعا بذلك عن وعى وإدراك ولكن هذا الاقتناع كان جزءا من الهواء الذى يتنسمه - وشيئا يمكن التسليم به دون جدال أو نقاش .

وكان جدى يعيش فى بمبروك لودج Pembroke Lodge وهو منزل يقع فى وسط ريتشموند بارك - ويبعد حوالى عشرة أميال عن وسط لندن . كان المنزل هدية من الملكة فيكتوريا إليه - منحته إياه لاستعماله مدى حياته وحياة جدتى . وفى هذه البيت عقدت اجتماعات وزارية كثيرة - كما وفد إليه كثير من الناس المشهورين . وفى إحدى المناسبات زاره شاه إيران واعتذر جدى عن صغر حجم البيت فأجابه الشاه بأدب «نعم أنه صغير ولكنه يحوى رجلا عظيما» وفى هذا البيت قابلت الملكة فيكتوريا وعمرى سنتان . وأثارت اهتمامى الشديد زيارة ثلاثة من الدبلوماسيين الصينيين بملابسهم الصينية الأنيقة الرسمية حينذاك - كما أثارت اهتمامى زيارة اثنين من المبعوثين الزنوج من ليبريا . وكانت فى حجرة الاستقبال منضدة يابانية بديعة الصنع مطعمة - أهدتها الحكومة اليابانية لجدى . واصطفت على البوفيهات زهريتان ضخمتان من

الصينى أهداهما إليه ملك ساكسونى . وكانت هناك مسافة ضيقة تفصل بين المائدة ودولاب الصينى - وكان محرما على تماما أن أحشر نفسى بينهما . ولهذا كنا نطلق عليها دائما بوغاز الدردنيل . كان كل ركن من أركان المنزل يقترن فى ذكرياته بحادثة من أحداث القرن التاسع عشر أو بأحد الأنظمة السائدة فيه والتى تبدو الآن أثرا من آثار التاريخ البعيد كحمام الدودو Dodo الذى وانقضى تماما فى يومنا الراهن - البيت الفيكتورى المتنقل لم يعد الآن ملكا لملكة أو ملك يهديه لمن يشاء ولكنه تحول إلى مكان عام لاحتساء الشاى . أما الحديقة التى امتلأت فيما مضى بالمخابىء والأركان القصة حيث يمكن لأى طفل أن يختبىء فقد أصبحت الآن مفتوحة على مصراعيها لعامة الناس . الديبلوماسيون المؤدبون الذين يمثلون ملوك دول اختفت لتحل محلها جمهوريات - ورجال الأدب الوقورون الذين يحيطون أنفسهم بمظاهر الأبهة والعظمة والذين بدا لهم كل قول عادى ورخيص على أنه ذو دلالة وعمق . كل هؤلاء اختفوا . وفوق هذا كله - اختفى الاقتناع المطلق بالاستقرار والثبات الذى كان يصور انتفاء التغيير فى أية رقعة من العالم على أنه بديهية مسلم بها لا تقبل النقاش أو الجدل . ولا يستثنى من ذلك غير التطور المنظم التدريجى فى أنحاء الدنيا كلها نحو دستور يشبه دستور بريطانيا بالضبط . فهل كان هناك فى أزمنه التاريخ عصر مثل هذا العصر الذى عصب عينيه فى سعادة وانتشاء دون أن يتنبه إلى أحداث المستقبل ؟ لقد تنبأت كاسندرا Cassandra[١] بحق بحلول المصائب فلم يصدقها أحد . وتنبأ أهل العصر الذى عاش فيه جدى تنبؤا زائفا بالرفاهية فصدقهم الناس . ولو تمكن جدى من أن يعود مرة ثانية إلى عالمنا الراهن لاصابته أحداث القرن العشرين بالدهشة أكثر مما تصيب جده أحداث القرن التاسع عشر . لأنه يصعب على الذين شبوا وترعرعوا فى أحضان تقليد قوى راسخ أن يتأقلموا فى العالم الراهن ، والادراك لهذه الصعوبة يجعل فى الامكان فهم كيف تتعرض الامبراطوريات التالدة والنظم العريقة فى الماضى

(١) كاسندرا فى أساطير الاغريق هى ابنة ملك طروادة تنبأت بهلاك طروادة وفنائها فلم يصدقها أحد .

والحاضر - التى بقيت على مر الدهور لأن تكتسح ويطاح بها وينتهى أمرها إلى الزوال ، لأن التجربة السياسية التى تتضمنها هذه الامبراطوريات والنظم قد أصبحت بين يوم وليلة غير ذات فائدة ولا تصلح عند التطبيق . ولذلك فإن عصرنا يولد الحيرة فى نفوس الكثيرين ولكنه يقدم فى نفس الوقت احتمال التحدى المثمر إلى أولئك القادرين على الفكر الجديد والخيال الجديد .

(٩) عظماء آخرون فى حياة برتراند راسل

لقد عرفت في خلال حياتى عددا كبيرا من النساء والرجال البارزين منذ العصر الفيكتورى حتى يومنا الراهن . وقد دلتنى تجربتى على أن أعظم الناس أثرا فى التاريخ - باستثناء حالات قليلة - ليسوا على درجة عظيمة من التأثير من الناحية الشخصية ، كما أنهم لايمتازون بشكل غير عادى بالصفات التى تجعلهم شخصيات لا تنسى . قابلت الملكة فيكتوريا مرة واحدة فى حياتى فى السنة الثانية من عمرى ، ولست أذكر هذه المقابلة لسوء الحظ . ولكن الذين يكبروننى فى السن لاحظوا لدهشتهم أن مسلكى فى حضرتها كان ينم عن الاحترام البالغ . ومن ناحية أخرى . كنت فى نفس العمل عندما قابلت لأول مرة روبرت براونينغ Robert Browning الذى كان كثير من الناس يعتبرونه أحسن شاعر فى عصره . وقاطعت حديثه فى صوت يخترق الأذن بقولى : «لكم أتمنى أن يسكت هذا الرجل عن الكلام» . وتكررت مقابلتى له فى السنوات الأخيرة من حياته ، ولكنى لم أجد فيه شيئا يدعو إلى التبجيل . كان جنتلمانا عجوزا لطيف المعشر ، عطوفا يشعر بالارتياح التام فى حفلات الشاى التى تجمع السيدات اللائى فى منتصف العمر، كما كان شديد التأنق ، رقيقا ، وأليفا تماما . ولكنه كان يخلو من النار المقدسة التى يتوقع المرء أن يجدها فى شاعر .

ومن ناحية أخرى كان تينسون Tennyson ، الذى كنت أراه كذلك بشكل متكرر ، يمثل دور الشاعر دائما مما أثار احتقارى له فى يفاعتى ، وكان من عادته أن يسير فى الريف بزهو وخيلاء فى معطف فضفاض ، ويصر كل الاصرار على عدم رؤية الناس الذين يصادفونه فى طريقه ، كما كان يستعرض المسلك اللائق بشرود ذهن الشعراء . ومن بين الشعراء الآخرين الذين قابلتهم ، أعتقد أن أكثر شخصية لا تنسى هى شخصية ارنست تولر Ernest Toller ، ويرجع هذا أساسا إلى قدرته على الألم الحاد غير الشخصى . أما روبرت بروك Robert Brooke الذى كنت أعرفه معرفة غير

وطيدة فكان جميلا يتدفق بالحيوية ، ولكن هذا الانطباع الطيب كانت تشوبه مسحة من اصطناع بيرون وعدم إخلاصه مع قدر من الزركشة والتزويق المصطنع .

وكانت لشخصية وليم جيمس من بين الفلاسفة البارزين - باستثناء الأحياء منهم - أكبر الأثر فيه على الاطلاق ، على الرغم من الطبيعية التامة التى اتسمت بها تصرفاته وعلى الرغم من انتفاء كل مظاهر الشعور بأنه رجل عظيم . ولم تفلح أية محاولة من جانبه لإظهار شعوره الديموقراطى ، ورغبته فى الاندماج التام مع روح عامة الناس فى أن تنتقص من قدره كأرستقراطى مطبوع ، وكرجل يبعث امتيازه الشخصى على الاحترام . وبعض الفلاسفة - ممن ليسوا بالضرورة أكثرهم كفاءة ومقدرة - يتركون فى النفس كبير الأثر بسبب أمانتهم الفكرية .. ومن بين هؤلاء يضرب هنرى سيدويك Henry Sidgwich الذى كان يدرس لى علم الاخلاق مثلا رائعا . ففى شبابه كانت وظائف الزمالة فى كامبريدج قاصرة فقط على هؤلاء الذين يرتضون التوقيع على بنود كنيسة إنجلترا التسعة والثلاثين وبعد انقضاء أعوام على توقيعها بدأت الشكوك تساوره . وعلى الرغم من أنه لم يكن ملزما بتأكيد ثباته على معتقداته ، إلا أنه قرر أن واجبه يقتضى منه تقديم استقالته . وقد عجل مسلكه هذا بتغيير القانون الذى وضع نهاية للقيود اللاهوتية القديمة . وقد كان كمدرس يظهر نفس الصدق والأمانة . وينظر إلى الاعتراضات التى يثيرها الطلبة فى أدب واهتمام كما لو كانت صادرة عن زملائه . وقد جعل هذا تدريسه أكثر جدوى من تدريس الكثيرين الذين يفوقونه فى الكفاءة والمقدرة .

ويتصف رجال العلم ، فى أحسن صورهم ، بنوع خاص من التأثير فى النفس منشؤه الجمع بين العقل العظيم وبساطة الاطفال . وعندما أقول (بساطة) لا أعنى أى شيء دال على انعدام الذكاء ، بل أعنى عادة التفكير فى غير الذات وبغض النظر عن الفائدة أو الخسارة الدنيوية التى يتضمنها ابداء رأى أو القيام بعمل . وقد كان انيشتين من بين رجال العلم الذين أعرفهم مثلا رائعا لهذه الصفة .

وفيما يتعلق برجال السياسة ، عرفت سبعة رؤساء وزارة ابتداء من جدى (الذى تولى رئاسة الوزارة فى عام ١٨٤٦) حتى المستر أتلى . وكان جلادستون - الذى كان معارفه يشيرون إليه (بالمستر) جلادستون - أكثر شخصية لا تنسى على الإطلاق . كما كان لينين الرجل الآخر الوحيد الذى عرفته فى الحياة العامة والذى يمكننى اعتباره على قدم المساواة فى أثره الشخصى مع جلادستون . كان جلادستون تجسيدا للفكر الفيكتورى كما كان لينين تجسيدا للمعادلات الماركسية - ولم يكن أى منهما انسانيا تماما وأن كان كل منهما يملك سلطان قوة من قوى الطبيعة .

كان مستر جلادستون فى حياته الخاصة يحقق هيمنته على الآخرين عن طريق جبروت عينه السريعة النفاذة التى يقصد من ورائها إشاعة الرهبة والخوف . وكان المرء يشعر أمامه كما يشعر تلميذ صغير فى حضرة مدرس من الجيل القديم برغبة في استسماحه قائلا «من فضلك ياسيدى» لم أكن أنا الذى فعلت هذا » وكان كل إنسان يشعر فى حضرته بمثل هذا الشعور وأنا لا أستطيع أن أتصور مخلوقا يجد فى نفسه الجرأة أن يروى له قصة يحتمل أن تثير ولو جانبا ضئيلا من غضبه أو ضيقه ، فاستشباعه الأخلاقى للقصة كان كفيلا بأن يحيل الراوى إلى قطعة حجر ، كانت لى جدة هى أفظع امرأة عرفتها فى حياتى فقد كانت فرائص مشاهير الرجال ترتعد دائما أمامها ، ولكن ذات مرة عندما كان مستر جلادستون مدعوا للشاى أخبرتنا جميعا سلفا أنها لن تسكت له بخصوص سياسته الايرلندية التى كانت تختلف معها بشدة ، وحضر جلادستون ، وكنت موجودا طيلة الوقت وقد تعلقت أنفاسى متوقعا الصدام المنتظر ، ولكن بالاسف ! رأيت جدتى تفيض رقة ولم تتفوه بحرف واحد يجعل الأسد يزأر ، ولم يكن ليجول بخاطر إنسان أنها كانت تختلف معه على أى شىء .

وكانت أكثر تجربة مروعة مخيفة فى حياتى تتصل بالمستر جلادستون فعندما كنت فى السابعة عشرة من عمرى شابا شديد الخجل والارتباك حضر عندنا جلادستون ليقضى عطلة نهاية الأسبوع مع عائلتى ، وكنت رجل البيت الوحيد ، وبعد أن تناولنا

الغداء ، وانسحبت السيدات طلبا للراحة ، وجدت نفسى بمفردى وجها لوجه أمام الغول وجمدت إلى الحد الذى منعنى من أداء واجباتى كضيف ، ولم يفعل هو من جانبه شيئا يساعدنى به على التغلب على ارتباكى ، وجلسنا فى صمت لمدة طويلة وأخيرا تنازل وأبدى ملحوظة كانت أول وآخر شىء تفوه به فقال فى صوت خفيض هادر : «نبيذ (البوزت) الذى أعطوه لى جيد جدا ، ولكن لماذا قدموه إلى فى الكأس المخصصة لنبيذ (الكلاريت) ؟ ومنذ ذلك الحين وأنا أواجه الرعاع الساخطين المهتاجين ، والقضاة الغاضبين ، والحكومات العدائية ولكنى لم أشعر قط بذلك الرعب الذى أصابنى فى تلك اللحظة التى جمدت الدم فى عروقى .

كان الاقتناع الأخلاقى العميق السر فى نفوذ المستر جلادستون السياسى وكانت له مهارة السياسى الذكى ، ولكنه كان مخلصا فى اقتناعه أن كل مناورة من مناوراته تستلهم أشرف المقاصد وأنبل الأغراض ، وقد لخص لابوشير Lobouchere الساخر شخصيته فى قوله : وهو ككل سياسى ، يخفى دائما شيئا فى جعبته لوقت الحاجة ، ولكنه يختلف عن الآخرين فى اعتقاده بأن الله هو الذى أخفاه فى جعبته» وكان يدأب فى جدية على استشارة ضميره والرجوع إليه كما كان ضميره يدأب فى جدية على اسداء النصح المناسب له .

وتتجلى شخصيته الطاغية فى القصة - سواء كانت حقيقية أم لا - التى تصور التقاءه بأحد السكارى فى اجتماع ، ويبدو أن هذا الرجل كان ينتمى إلى الحزب السياسى المعارض لجلادستون ، وأنه دأب على مقاطعته ، وأخيرا ، جمده مستر جلادستون فى مكانه بنظرة من عينيه ، وخاطبه بهذه الكلمات : «هل يسمح لى السيد - الذى لم يكتف بمقاطعتى مرة ، بل دأب على مقاطعتى باعتراضاته - أن يوفر لى ذلك القدر الكبير من الأدب والذوق الذى كنت لا أتوانى لحظة فى توفيره له لو أننا تبادلنا أمكنتنا» وقد قيل - وأنا على استعداد تام لتصديق ما قيل - أن الصدمة جعلت الرجل يفيق من سكرته فالتزم الصمت خلال بقية الأمسية .

ومن الغريب أن نحو نصف أهل وطنه - بما فيهم الغالبية العظمى من الاثريا، كانوا ينظرون إليه نظرتهم إلى مجنون أو شرير أو إلى مجنون وشرير معا ، وفى طفولتى ، كانت غالبية الأطفال الذين أعرفهم محافظة . وقد أكدوا لى فى هيبة ووقار كحقيقة شائعة معروفة - أن المستر جلادستون يقوم كل صباح بطلب عشرين قبعة من أفخر القبعات من بائعين مختلفين ، الأمر الذى يضطر زوجته إلى الخروج واللف على المحلات حتى تلغى هذا الطلب (كان هذا قبل استحداث التليفون) . وكان البروتستانت يفترضون أنه يتآمر سرا مع الفاتيكان كما كان الأغنياء (باستثناء قلة منهم) ينظرون إليه كما كان أكثر الأثرياء الأمريكان رجعية ينظرون إلى مستر روزفلت ، ولكنه ظل هادئا لايتأثر لأنه لم يشك أبدا أن الرب كان يسانده ويؤيده . وقد كاد أن يكون الها بالنسبة إلى نصف الأمة الانجليزية .

كان لينين الذى تحدثت معه حديثا طويلا فى موسكو عام ١٩٢٠ يغاير جلادستون من الناحية السطحية مغايرة كبيرة ، ومع هذا فسنجد - إذا أدخلنا فى اعتبارنا الفرق فى الزمن والمكان والمذهب - أن هناك صفات مشتركة كثيرة تربط الرجلين ، ولنبدأ بأوجه الخلاف بينهما كان لينين فظا قاسيا ، ولم يكن جلادستون كذلك ، لم يكن لينين يحفل بالتقاليد أو يقيم لها وزنا ، فى حين أن جلادستون كان يكن كبير الاحترام لها . كان لينين يعتبر كل الوسائل التى تحقق انتصار حزبه مشروعة ، فى حين أن جلادستون كان ينظر إلى السياسة على أنها لعبة لها قواعد معينة يجب مراعاتها ، وفى نظرى أن كل هذه الخلافات تجعلنا نفضل جلادستون وعلى هذا الأساس فقد كانت لجلادستون بوجه عام آثار طيبة فى حين كانت آثار لينين مخربة مدمرة .

وعلى الرغم من كل هذه الخلافات نجد على كل حال أن أوجه الشبه بينهما كانت لاتقل فى عمقها عن أوجه الخلاف . لقد كان لينين يفترض أنه ملحد ، ولكن الصواب جانبه فى هذا ، فقد كان يعتقد أن (الجدلية) Dialectic - التى كان الأداة المنفذة لها - تسيير دفة العالم ، وكان يرى نفسه مثله فى ذلك مثل جلادستون على أنه المندوب

البشرى لقوة فوق البشر . وكانت قسوته وجوره يتجليان فقط فيما يستخدم من وسائل ، وليس فيما يهدف إليه من غايات ، فهو لم يكن على استعداد لأن يشترى السلطان الشخصى بدفع الردة عن مذهبه ثمنا له . وكان كلا الرجلان يستمدان قوتهما الشخصية من الاقتناع الذى لايتزحزح بنزاهة شخصيتهما . ومن أجل مساندة مذهبيهما خاض الرجلان بسبب جهلهما فى مناطق غريبة عنهما مما أثار السخرية منهما ، فخاض جلادستون فى نقد الكتاب المقدس Biblical Criticism وخاض لينين فى الفلسفة .

وإذا قارنا الاثنين نجد أن جلادستون يفوق لينين فى كونه شخصية لاتنسى ودليلى على ذلك ما سيعتقده المرء بخصوصهما لو قدر له أن يقابل كلا منهما فى قطار دون أن يعرف حقيقة شخصيته ، فأنا مقتنع أن جلادستون فى مثل هذه الظروف كان سيبهرنى إلى الحد الذى يجعلنى أعتقد أنه أحد الرجال الذين يقابلهم الإنسان فى حياته فيظلون ماثلين فى ذهنه أبدا ، وكنت سأفقد فى حضرته القدرة على الكلام وسأبدو كما لو كنت متفقا معه فى كل ما يقول .. أما لينين فعلى النقيض من ذلك . كان يبدو لى فيما أعتقد متعصبا ضيق الأفق وساخرا (Cynic) رخيصا .

وأنا لا أزعم أن مثل هذا الحكم سيكون فى محله ، فهو حكم جائر . لا لأنه غير صحيح ولكن لأنه ناقص . فعندما قابلت لينين لم يترك فى نفسى انطباع الرجل العظيم الذى توقعته ، فقد كانت انطباعاتى الحية هى تعصبه وقسوته المغولية ، وعندما سألته عن الاشتراكية فى الزراعة ، شرح لى فى سرور وابتهاج كيف أنه كان يحرض الفلاحين الفقراء ضد أقرانهم الأوفر حظا «وفى الحال كانوا يعلقون لهم المشانق على أقرب شجرة» ثم يقهقه ، وكانت قهقهته وهو يذكر الذين ذبحوا بهذه الطريقة تجعل بدنى يقشعر .

وكانت الصفات التى تصنع الزعيم السياسى موجودة فى لينين بدرجة أقل وضوحا من جلادستون ، فأنا أشك إذا كان لينين يستطيع أن يكون زعيما فى الأزمنة الهادئة غير المضطربة ، وكان يستمد قوته من حقيقة مفادها أنه يكاد يكون الوحيد فى أمة حائرة مهزومة الذى لم يساوره الشك ، وظل يبشر بأمل فى نصر من نوع جديد

على الرغم من المصيبة العسكرية التى لحقت بأمته ، وبدا أنه يدلل على صحة انجيله الذى يبشر به عن طريق العقل الهادىء الذى لاينفعل بالعواطف ، العقل الذى يعتمد على مؤازرة المنطق كحليف له ، وهكذا بدت له عواطفه وعواطف أتباعه ، كما لو كانت تتمتع بتأييد العلم لها ، وكما لو كانت الوسيلة الوحيدة التى سيتم بها خلاص العالم ، ولا بد أن روبسبير كان يملك جانبا من نفس هذه الصفة .

لقد تحدثت عن رجال كانوا بارزين بطريقة أو أخرى ، ولكنى كنت غالبا ما أتاثر فى واقع الأمر برجال ونساء لانصيب لهم من الشهرة والشىء الذى وجدت ألا سبيل إلى نسيانه هو ضرب من الصفة الأخلاقية والمعنوية يتمثل فى عدم تفكير الانسان فى ذاته سواء فى الحياة الخاصة ، أو فى شئون الحياة العامة ، أو فى اقتفاء أثر الحقيقة ، ففى يوم من الايام التحق بخدمتى بستانى لايعرف القراءة والكتابة ، ولكنه كان نموذجا كاملا للطيبة البسيطة التى كان تولستوى مولعا بتصويرها بين الفلاحين ، وهناك انسان اسمه ا.دمورل E.D.Morel لن أنساه ماحييت نظرا إلى طهارة قلبه ، قد بدأ حياته ككاتب شحن بضائع فى ميناء ليفربول ، ثم بدأ يدرك الفظاعات التى ينطوى عليها استغلال الملك ليبولد فى الكونغو ، وتعين عليه حتى يعلن عن رأيه أن يضحى بوظيفته ومصدر رزقه ، وبدأ يعمل من أجل دعوته ، بمفرده أولا ، حتى استطاع تدريجيا على الرغم من معارضة كل حكومات أوروبا أن يثير الرأى العام ويضطر الحكومات إلى الاصلاح ، ثم ضحى بالمكانة الجديدة التى اكتسبها لنفسه فى سبيل دعوته إلى السلام أثناء الحرب . مما أدى إلى الزج به فى السجن خلال فترة الحرب .

وعاش بعد تكوين أول حكومة عمالية بوقت قصير ، واستبعده رامزى ماك دونالد من الوزارة حتى يصرف الناس النظر عن ماضيه هو فى الدفاع عن السلام .

ومن النادر أن يكون النجاح الدنيوى من نصيب مثل هؤلاء الناس ولكنهم يلهمون من يعرفونهم الحب والاعجاب اللذين يفوقان حبنا واعجابنا بمن هم أقل منهم طهارة فى القلب .



القسم الثانى : جوليان هكسلى



مقدمة

تحديد النسل

من الناحية التاريخية

لكل زمن بعبعه وكابوسه . وأخشى ما أخشاه أن تظل المخاوف السوداء لأجل غير قصير جزءاً من المصير الإنسانى المحتوم . فمنذ ألف عام كان الناس يعتقدون اعتقاداً أكيدا فى قرب حلول يوم القيامة . وكان هذا التفكير المتشح بالسواد يزعجهم ويقض مضجعهم ويعذب ضمائرهم الملتاعة . ومنذ خمسمائة عام كانت أوصال المجتمع الأوربى ترتجف عند ذكر الساحرات والشياطين ذات القرون . أما إنسان القرن العشرين فيصيبه الهلع عندما يتصور مصير العالم فى حالة نشوب حرب هيدروجينية وحتى إذا عن لإنسان القرن العشرين ألا يفكر فى الحرب فهو لن يسلم من المخاوف التى ستظل تلاحقه ، فيكفيه أن يفكر فى زيادة عدد السكان الهائلة حتى يقشعر بدنه .

ت . ر . مالثوس بعبع العصر الحديث :

لاشك أن زيادة السكان الهائلة مصدر قوى من مصادر خوف الانسان الحديث كما أنه لاشك أن توماس روبرت مالثوس (١٧٦٦ - ١٨٣٤) مسئول عن موجة الرعب التى اجتاحت العصرالحديث . فمن هو مالثوس الذى أدخل الفزع فى القلوب ؟ وكيف استطاع أن يصيب هذه القلوب بالفزع ؟ مالثوس ليس بحاجة إلى تعريف فالكل يعرفونه . رجال الاجتماع يعرفونه . رجال السياسة يعرفونه . رجال الفلسفة يعرفونه . حتى رجال الأدب لم يتمكنوا من الفرار بجلدهم من أثر هذا الرجل الذى أدخل الرعب والحزن فى قلوب العباد ، وساعد فى تكوين كوكبة من الكتاب المتشائمين من أمثال الكاتب الانجليزى المعروف توماس هاردى (١٨٤٠ - ١٩٢٧) الذين غمروا العالم بأدبهم المحزون . فمن هو مالثوس الذى أصاب القرن التاسع عشر بالهلع والحزن معا

قد تدهش عندما تعلم أن هذا الرجل الذى أثار الرعب فى العالم المتمدين الحديث إن هو إلا قسيس تبدو على ملامحه كل مظاهر الطيبة والحنان ، وسائر دلائل الوداعة والرقة . هذا القسيس الوديع المظهر كان يبشر بنظريات أقل ما توصف به أنها كانت مدموغة بطابع الوحشية والغلظة والفظاظة .

مالثوسية الأب ومالثوسية الأبن :

كان مالثوس الأب «جنتلمان» يحظى بمال وفير وعلم غزير . وكان فى شبابه على صلة بفلاسفة عصر التنوير الذى مهد للثورة الفرنسية من أمثال روسو ، وكوندورسيه يراسلهم ويراسلونه . وكان متأثرا بالمبادىء الانسانية التى تتضمنها حركة التنوير فهو يؤمن بالمساواة ويرجو للإنسانية الخير والتقدم . أما مالثوس الابن فكان على النقيض من أبيه . فهو لا يدخل المبادىء الانسانية فى اعتباره ولايعترف بغير أحكام العقل والعلم . وكثيرا ما كان النقاش يحتدم بين الاب وابنه . نقاش طويل يستغرق أياما بأكملها . نقاش يستمر ليل نهار . وكان النقاش المحتدم يدور حول نقطة معينة . كانت الحكومة الانجليزية حينذاك بصدد إصدار «قانون الفقراء» ويقضى هذا القانون بإغاثه الكادحين إغاثة طفيفة تمنعهم من التضور جوعا . كان الاب يهلل لهذا القانون ويدافع عنه ويرى أن غوث الكادحين مهما كان طفيفا خير من عدمه ، وكان يرى فيه خطوة - ولو تافهة - نحو تحقيق العدالة والمساواة . وعبثا حاول مالثوس الاب أن يقنع الابن بذلك ، فقد كان الابن يعارض هذا القانون معارضة شديده ويرى أن غوث الكادحين بلاء وأن أية تنازلات من الطبقة الغنية للطبقات الكادحة تنطوى على العبث وضيا ع اموال الدولة دون جدوى . وتشبث كل من الاب والابن بموقفه دون أن يفلح أحدهما فى إقناع الآخر . وكان لمالثوس الابن وجهة نظر ومنطق يستند إليه . كان الابن يرى أن الفقراء مكتوب عليهم الفقر الابدى مهما سعت الدولة للتخفيف عنهم ، فزيادة نسلهم المروعة تبتلع كل محاولة لتحسين أحوالهم وتدمرها . بل كان يذهب إلى أبعد من هذا . كان يرى فى المجاعات والحروب والأملاق نعمة تمنحها الطبيعة للطبقات الكادحة فهى

جميعا تتسبب فى تخفيض عدد سكان العالم بحيث لايزيد هذا العدد عما تستطيع الموارد الطبيعية توفيره . ويقول مالثوس لو أن هذه العوامل المباركة - المجاعات والحروب والاملاق - لا تتدخل فى المصير البشرى ، لتضاعف السكان كل ٢٥ سنة ، أى لاصبح تعداد أوربا وحدها فى عام ٢٠٠٠ ميلادية يربو على ٥٠ ألف مليون نسمة بينما أن الموارد الطبيعية فى العالم لن تكفى بحال من الاحوال أكثر من الفين مليون نسمة .

المالثوسية القديمة وتحديد النسل :

لاشك أن النتائج التى يمكن استخلاصها من نظريات مالثوس لاترضى الطبقات الفقيرة بأية حال من الأحوال . أن مباشرة العلاقات الجنسية فى نظر مالثوس يجب أن تكون حكرا على القلة التى تعيش فى رغد وبحبوحة ، أما الفقراء فليس لهم الحق فى البقاء ولا فى مباشرة العلاقات الجنسية ، لأن هذه المباشرة من شأنها أن تكثر من النسل ، ومن شأن الاكثار من النسل أن يزيد مشاكلهم ومشاكل العالم تفاقمًا . استمتاع الفقراء بالجنس إذن جريمة لا تغتفر . ومالثوس لا يذكر هذا صراحة ولكن كل الدلائل فى كتاباته تشير إلى ذلك ويمكننا أن نحسه من وراء السطور وإذا تتبعنا نقاط جدله إلى نهايتها المحتومة . ما الحل إذن ؟ تقدم مالثوس إلى الفقراء بالنصح ، وطالبهم أن يكون العقل رائدهم وأن يكبحوا فى نفوسهم جماح غريزة الجنس . وإذا لم يتمكنوا من كبح جماحها فعليهم أن يتزوجوا فى سن متأخرة كلما استطاعوا إلى هذا سبيلا . أكثر من هذا ، عليهم أن يحيوا حياة الطهر والعفة حتى يحين موعد زواجهم المتأخر ، كان مالثوس يدرك الصعوبة التى تعترض طريق الاغلبية العظمى من الناس فى تنفيذ ما ينصح به ، ولكن مالثوس لم يفقد الامل فى أن يكبح الانسان جماح شهواته . كان مالثوس يعتقد أن الانسان يستطيع هذا إذا توفرت له قوة الإرادة والخلق القويم . وأراد مالثوس أن يضرب بنفسه مثلا حيا يحتذيه الآخرون فامتنع عن الزواج حتى ناهز الاربعين . كان مالثوس يعترض على أية محاولة من جانب الانسان

لمنع الإنجاب بعد أن يكون الاتصال الجنسى قد تم بالفعل ، وكان يرى فى الامتناع عن ممارسة الجنس أصلا الوسيلة الشرعية لحل مشكلة تزايد السكان ، وكان مالثوس يناشد الحاسة الاخلاقية فى الناس ويعمل على تدعيمها والتمكين لها .

وهذا ما اصطلح العلماء على تسميته بالمالثوسية القديمة . وكان للمالثوسية القديمة كبير الأثر على تصرفات بعض الحكومات الأوربية التى استباحت لنفسها حق استصدار تشريعات من شأنها أن تتدخل فى حياة الافراد الخاصة . ففى النمسا مثلا فى عهد مترنخ عدلت السلطات النمسوية عن تشجيع الزواج الذى كان يعتبر فيما مضى ذا فائدة قصوى للدولة من الناحيتين العسكرية والاقتصادية . وسنت السلطات النمسوية تشريعات تقف حائلا بين الزواج والراغبين فيه . وأصبح على طالب الزواج أن يستخرج تصريحًا خاصًا بذلك بعد أن يثبت للسلطات المسئولة أنه صاحب وظيفة أو أنه يملك أى مصدر آخر من مصادر الايراد أو الرزق . وكانت السلطات بطبيعة الحال تمتنع عن منح المعدمين أية تصريحات بالزواج . وظلت آثار هذه التشريعات فى النمسا باقية حتى قبل الحرب العالمية الأولى بوقت قصير . ومما يؤكد لنا أثر المالثوسيه القديمة على الحياة الاوروبية أن الجيش البروسى كان يحرم الزواج على الضباط قبل أن يصلوا إلى رتبة «كابتن» إلا إذا كان لهم أو كانت لزوجاتهم مصادر إيراد خاصة . ولكن الواقع الجنسى خيب أمل هذه التشريعات التى لم تؤت ثمارها المرجوة التى كان يطمع فيها مالثوس والمشايعون له فقد دلت الاحصاءات أن التناسل - رغم كل هذه التقييدات - ظل يزداد بمثل معدله الأول وازدادت نسبة الاطفال غير الشرعيين . كل ما حدث من تغيير فى حياة الناس الجنسية هو أن نسبة الوفيات بين الاطفال غير الشرعيين كانت بطبيعة الحال أكبر مما كانت عليه عندما كان الزواج حرا غير خاضع للقيود الاقتصادية . وهكذا أثبتت الطبيعة البشرية كما اثبت الواقع الجنسى إفلاس المالثوسيه القديمة بدعوتها غير العملية إلى الطهارة الجنسية والتى لم تحل دون الزيادة المخيفة فى عدد السكان .

المالثوسية الجديدة وظروف نشأتها :

قبل أن نعرض للمالثوسية الجديدة وظروف نشأتها لابد لنا أن نذكر أن نظريات مالثوس الخاصة بزيادة السكان كانت تتفق ومصالح المنتجين الصناعيين فى انجلترا (وهى أولى البلاد فى مضمار التقدم الصناعى) وتناسب أهدافهم المستغلة . كان النزاع محتدما فى منتصف القرن التاسع عشر تقريبا بين أصحاب بيوتات الصناعة فى انجلترا والطبقة الفقيرة الكادحة ، فقد كانت الطبقة العاملة فى ذلك الوقت تطالبهم بتحسين أجور العمال . ووجدت الطبقات الرأسمالية المستغلة فى نظريات مالثوس ما تنتحله من أعذار تعفيها من مسئولياتها نحو الفقراء . فمن ناحية ، وجدت الرأسمالية الانجليزية فى المالثوسية ما يبرىء ذمتها من وزر استغلالها البشع للطبقة العاملة . ومن ناحية أخرى رحبت هذه الرأسمالية الانجليزية بالمالثوسية ، لأنها تحمل الكادحين مسئولية الفقر الذى يعيشون فيه ، فنظريات مالثوس تنتهى بنا إلى الاعتقاد بأن فقر الكادحين لا يرجع إلى سوء الأجور أو استغلال رجال الصناعة لهم بل إلى استسلام الطبقة العاملة لنزوتها الجنسية وتركها الحبل على الغارب لدوافعها الحيوانية ، الأمر الذى يفضى حتما إلى كثرة أنسال الكادحين بصورة مفزعة وبالتالى إلى الفقر الذى يقاسون منه . وكان رد أصحاب الصناعة المستغلين على العمال المطالبين بتحسين أجورهم أن الحل لمشاكلهم والطريق إلى الخلاص من وهدة الفقر فى أيديهم إذا هم أنصتوا إلى صوت العقل وامتنعوا كما بشر مالثوس عن ممارسة الجنس .

ولكن التجربة والدافع الجنسى أثبت بشكل قاطع فشل المالثوسية وإفلاسها عند التطبيق (١) أساسا لان الفقراء ظلوا يمارسون الجنس رغم كدحهم وارهاقهم فى العمل ورغم سوء التغذية التى كانوا يعانون منها (٢) ولأن انجلترا التى كانت تتقدم حينذاك بخطى واسعة حثيثة فى مضمار الصناعة لم تكن تعانى من نقص فى الطعام ، فقد كان باستطاعتها استيراد كل ما تحتاج إليه من مواد الغذاء من البلاد الاخرى .

كان من الطبيعى إذن أمام فشل المالثوسية وإفلاسها أن ينهض فريق من الناس

للعمل على تطوير المالثوسية القديمة واستحداث نوع من المالثوسية الجديدة التى لا تتعارض هذا التعارض التام مع الطبيعة البشرية . كانت المالثوسية القديمة تطالب الفقراء بالمستحيل فهى تدعوهم إلى كبح جماح الغريزة الجنسية وإيثار حياة الطهارة والعفة . أما المالثوسية الجديدة فكانت تدرك الصعوبات التى تكتنف هذه الدعوة وترى فيها اتجاها غير طبيعى . وفكر المشايعون للمالثوسية الجديدة ممن كانوا حريصين على رفع مستوى الطبقات الكادحة فى عدم حرمان هذه الطبقات من الاستمتاع الجنسى والاكتفاء بمطالبتها بالامتناع عن الانسال حتي لا ينخفض مستواها المعيشى . ولهذا فكر هؤلاء المشايعون للمالثوسية الجديدة فى استحداث الوسائل الكفيلة بمنع الحمل وعملوا على إذاعة هذه المعلومات بين الاوساط الفقيرة بكافة الطرق . وكانت أولى المحاولات فى هذا الصدد هى محاولة قام بها المصلح الاجتماعى فرانسيس يلدس الذى نشر فى لندن ١٨٢٢ كتابا يحمل عنوان «صور وأدلة على مبدأ السكان» وبعد هذا التاريخ بأعوام قليلة صدر كتاب آخر صغير فى لندن بعنوان يدل على البراءة «ما هو الحب»؟ ضمنه كاتبه معلومات مفصلة عن كيفية منع الحمل ، وسرعان ما انتشرت الدعاية لتحديد النسل من انجلترا إلى أمريكا . وقام بالدعوة إلى تحديد النسل فى أمريكا روبرت دال أوين - ابن الاشتراكى الانجليزى المعروف روبرت أوين - الذى أصدر فى عام ١٨٣٠ كتابا بعنوان «الفسيولوجيا الاخلاقية» . وحظى هذا الكتاب باحترام بالغ بالنظر إلى سمعة كاتبه التى لا ترقى إليها الشبهات .

ومن الأمور التى تدعو إلى الدهشة والغرابة معا أن الدعوة إلى تحديد النسل باستعمال الموانع فى انجلترا لم تلق أية معارضة تذكر على الرغم من قيام هذه الدعوة إبان العصر الفيكتورى وهو عصر معروف من الناحية التاريخية بتزمته الشديد وحرصه التام على مقتضيات اللياقة وعدم الإساءة إلى الاخلاق العامة . كل ما كان هذا المجتمع يريده من الداعين إلى تحديد النسل عن طريق الموانع هو مراعاة قواعد الذوق والتهذيب والامتناع عن الغش والاسفاف والابتذال . ولعل أهم كتاب صدر فى

القرن التاسع عشر فى هذا الموضوع على الاطلاق هو كتاب «عناصر علم الاجتماع» . وقد صدر هذا الكتاب فى لندن عام ١٨٥٤ وقام بوضعه طبيب له مكانته العلمية الرفيعة اسمه جورج دريسول . وذاع هذا الكتاب ذيوعا كبيرا لدرجة أنه اعيد طبعه ٣٥ مرة فى بريطانيا وحدها . واسترعى هذا الكتاب انظار الناس أكثر من كتاب داروين المعروف «أصل الانواع» الذى ظهر فى نفس الوقت .

لم تقف المالثوسية الجديدة عند حد المطالبة بتحديد النسل بل تعدتها إلى ارساء قواعد علم جديد في منتصف القرن التاسع عشر هو علم تحسين النسل . ولاشك أن العلاقة بين الداروينية والمالثوسية الجديدة علاقة وثيقة للغاية . ولن يجانبنا الصواب إذا قلنا:إن الداروينية والمالثوسية الجديدة إن هما إلا فرعان خارجان من مصدر واحد هو نظريات روبرت مالثوس ، وقد اعترف داروين في وضوح وجلاء بفضل مالثوس عليه فقد قرأ داروين لمالثوس وتأثر به أبلغ التأثر واستمد منه فكرته الاساسية عن «الصراع من أجل الحياة» . تحدث داروين عن «البقاء للأصلح» وليس فى هذا ما يتعارض مع ما تسعى المالثوسية الجديدة إلى تحقيقة . وبالفعل وجهت المالثوسية الجديدة نظرها إلى الاستفادة من هذا القانون البيولوجى فى مجالات الانسان وذلك بالعمل على تحسين نسله وإيثار الكيف على الكم ، فتحسين النسل بالحد منه والعمل على رفع مستواه هما الضمان الذى يكفل خلق الفرد الصالح الذى يستطيع أن يخوض معركة الحياة ويخرج منها منتصرا فى النهاية ، وقد قام بوضع أسس علم تحسين النسل عالم الانثروبولوجيا الانجليزى فرانسيس جالتون الذى أضاف إلى المعرفة الخاصة بالوراثة فى وقت كانت فيه هذه المعرفة ضئيلة لا تذكر . وفرانسيس جالتون هو قريب تشارلس داروين .

اضطهاد المالثوسية الجديدة فى انجلترا :

سبق أن ذكرنا أنه من الغرابة بمكان أن يسمح المجتمع الفيكتورى المتزمت الشديد المحافظة بنشر المعلومات الجنسية التى كانت المالثوسية الجديدة تحرص على

إذاعتها على الناس . ومما يؤكد لنا الحرية التى كان دعاة المالثوسية الجديدة يتمتعون بها فى انجلترا أن هذه الحركة استطاعت أن تصدر فى عام ١٨٦٠ مجلة تحمل عنوان «المصلح الاجتماعى» . واستمرت هذه المجلة في الصدور مدة ١٧ سنة دون أن تلقى تدخلا من الجهات المسئولة رغم الصراحة التى كانت تتميز بها دعوة المالثوسية الجديدة .

وفى يوم من الأيام حدث مالم يكن فى الحسبان فإذا بهذا الجو السمح يتكهرب فجأة وإذ بمخالب الاضطهاد تنهش فى صدر الحركة التى قامت بها المالثوسية الجديدة . وكانت حادثة صغيرة فى حد ذاتها . ولكنها أصبحت على حين غرة نقطة انطلاق لأكبر حركة اضطهاد تعرض لها دعاة المالثوسية الجديدة فى انجلترا . ففى مدينة بريستول ، وقعت نسخة من كتاب فى الجنس وضعه الدكتور نولتون يحمل عنوان «ثمرات الفلسفة» فى يد أحد مفتشى البوليس الذى رأى فيه خروجا على قواعد الاخلاق العامة والذوق واللياقة وطلب هذا المفتش من القضاء الأمر بمصادرة هذا الكتاب ومنعه من التوزيع . والغريب فى الأمر أن توزيع الكتاب ظل مستمرا نحو ٥٠ سنة دون أن يتنبه أحد إليه قبل مفتش البوليس هذا . وتضايق دعاة المالثوسية الجديدة فى انجلترا من هذا الاجراء التعسفى ، وخاصة لأن هذا الكتاب الذى أمر القضاء بمصادرته كان متحفظا للغاية إذا قورن بما يقومون بنشره بالفعل فى مجلتهم النظامية «المصلح الاجتماعى» واحتج صاحب المجلة ومحررها تشارلس برادلاف على حكم القضاء الجائر وتعمد تحدى السلطات ومهاجمتها فقام في الحال باعادة طبع الكتاب المصادر لتوزيعة على الناس . وهكذا انطلقت شرارة المعركة التى دارت رحاها بين المالثوسية الجديدة والسلطات المسئولة .

تفاقمت الحالة فقدم برادلاف للمحاكمة وحكمت عليه المحكمة بستة شهور فى السجن وبغرامة قدرها ٢٠٠ جنيه . وأثار حكم القضاء سخط جانب كبير من الانجليز ومن بينهم كثيرون ممن لايقرون بآراء برادلاف فى الجنس ولكن ممن يحملون له

الاعجاب على الشجاعة التى أبداها فى وجه السلطات . وفى أمريكا ، قررت مجموعة من الاطباء فى جامعة هارفارد الوقوف فى صف برادلاف ومؤازرته فقامت بطبع الكتاب المصادر فى أمريكا ، واضطر القضاء الانجليزى أمام موجة السخط التى اجتاحت الرأى العام أن تلغى حكمه الصادر ضد برادلاف . وكان هذا الالغاء بمثابة نصر عظيم استطاعت المالثوسية الجديدة أن تحققه .

ولم يكن برادلاف الشخص الوحيد من دعاة المالثوسية الجديدة الذى تعرض لاضطهاد القضاء الانجليزى فقد تعرضت سيدة اسمها «أنى بيزانت» كانت تعاون برادلاف فى دعوته لمثل ما تعرض له من جور واجحاف وحكم عليها بالسجن مع برادلاف ولكنها برئت كما برىء فى نهاية الأمر ، وكان السبب فى تقديمها للمحاكمة هو جرأتها البالغة فيما كانت تكتبه من مقالات داعية لنشر أهداف المالثوسية الجديدة . وظهرت أنى بيزانت على مسرح الاحداث كضحية من ضحايا الاضطهاد الفكرى واستطاعت هذه السيدة أن تستغل إلى أقصى حد العطف العام الذى حظيت به أثناء المحاكمة فنظمت حركة واسعة النطاق ذات قاعدة شعبية كبيرة تؤيد الصراحة التامة فى معالجة قضية تحديد النسل كما تؤيد نشر المعلومات العلمية الخاصة بكيفية تحديد النسل دون مواربة أو تغليف . ولولا جهود هذه المرأة الديناميكية الغريبة الأطوار لما كتب لدعوة المالثوسية الجديدة الانتشار فى أوسع صورة كما حدث . ولاشك أن المالثوسية الجديدة قد استفادت فائدة لاتقدر من نشاط هذه المرأة العجيبة التى بدأت حياتها كمفكرة حرة تنبذ المعتقدات التقليدية وانتهى بها الأمر إلى اعتناق نوع من التصوف والتبشيرية عندما تقدمت بها السن .

وسائل منع الحمل وفق المالثوسية الجديدة :

قلنا : إن ذيوع المالثوسية الجديدة بين الناس وتأثيرها الكبير فيهم جاء نتيجة لأن كل فرد فى حياته الخاصة يستطيع أن يطبق التعليمات الخاصة بتحديد النسل التى تدعو إليها المالثوسية الجديدة دون أن ينتظر أى عون من أجهزة الدولة ، ودون أن

تستطيع هذه الاجهزة أن تتدخل في شئونه . وحتى لو افترضنا أن الدولة ستعترض على استعمال الوسائل الصناعية والتركيبات الكيماوية لمنع الحمل وتحرمها ، فلن يقف هذا عائقا أمام الفرد الذى يبغى تجنب انجاب الاطفال لان المالثوسية الجديدة يسرت على الناس أمر هذا المنع ولم تطلب من النساء أكثر من تدوين أوقات الحيض بدقة ومطالبتهن بتجنب المعاشرة الجنسية فى مرحلة معينة قصيرة . ولم تكن هذه الطريقة جديدة على الانسانية فقد كانت معروفة عند الأغريق والرومان ولكن النسيان طواها فى طياته كما طوى الكثير من آثارهم ثم أعاد العالم الحديث اكتشافها . والمرجح أن مالثوس كان يجهل هذه الطريقة فى منع الحمل لأنه لم يشر إليها كحل لمشكلة السكان رغم انها لا تتعارض مع معتقداته الاخلاقية . وأنه لمن الاهمية بمكان أن تذكر أن الكنيسة الكاثوليكية – وهى متشددة فى موقفها ضد استعمال الوسائل الصناعية لمنع الحمل – أقرت هذه الطريقة ولم تقم بالاعتراض عليها .

الظروف الجديدة التى ساعدت المالثوسية الجديدة على الانتشار :

من الثابت أن السيدة «أنى بيزانت» ساعدت انتشار دعوة المالثوسية الجديدة على أوسع نطاق . ولكن جهدها وحده لم يكن ليكفى لو لم تكن الظروف الاقتصادية – والاجتماعية حينذاك تساعد على ذيوع الدعوة والتمكين لها . فقد كانت اوربا بأسرها فى القرن التاسع عشر تمر من حين لآخر بأزمات اقتصادية عنيفة مما أفضى إلى هجرة مئات الالوف من الأوربيين إلى أمريكا . وكانت الطبقات الكادحة فى هذه الازمات ترزح تحت نير الفقر الشديد مما كان يحيل أية زيادة فى عدد افرادها جحيما لايطاق . وفى هذا الجو وجدت الدعوة للمالثوسية الجديدة صدى وترحيبا . ووجد الناس فيها حلا عمليا لمشكلة السكان التى يعانون منها ، أكثر مما وجدوا فى دعوة الاشتراكية عند انجلترا وماركس ، والسبب بسيط ، كانت الحلول التى تقدمها الاشتراكية حلولا تؤتى ثمارها فى المستقبل فى ظل مجتمع اشتراكى . صحيح أن

الاشتراكية الماركسية تبشر الناس باختفاء مشكلة السكان من مسرح الاحداث . ولكن هذا لن يكون إلا فى المستقبل . ولكن الناس يريدون حلا لمشكلتهم الحاضرة ولن يغريهم كثيرا أن يوعدوا بأن مشاكلهم ستجد حلا لها في الاجيال القادمة ، ومن ثم كان أثر المالثوسية الجديدة فى حياة الناس كبيرا فهذه المالثوسية تتعهد بحل مشاكلهم الحاضرة . وهذا ما دعا الاشتراكيين رغم مناصبتهم العداء للمالثوسية أن يغمضوا الطرف عن المحاولات التى تبذلها المالثوسية الجديدة لوضع حد لتزايد السكان المتفاقم . ونجحت المالثوسية الجديدة فى دعوتها لأنها قدمت للناس وسائلها العملية البسيطة السهلة التى يمكن لأى انسان أن يزاولها فى حياته الخاصة وبالطريقة التى يراها دون التجاء إلى أجهزة الدولة لتعينه فى هذا السبيل . أما الحلول التى تقدمت بها الاشتراكية للناس فكانت تعتمد على إحداث تغييرات جذرية فى نظم الدولة الاقتصادية والاجتماعية وإصدار قوانين ثورية شاملة .

تحديد النسل
هو التحدى الذى يجابه الانسان الحديث

يرى الناس فى أغلب الاحيان أن اكتشاف السبيل إلى إطلاق الطاقة الذرية قد انتهى بنا إلى حافة عصر جديد ، يضارع فى أهميته بداية العصر الصناعى منذ قرنين من الزمان ويتضائل معه كل تطور إنسانى حديث وأنا كعالم بيولوجى موقن يقينا تاما في واقع الأمر أن الانسان يجابه أعظم تحد يعرض له فى مجال البيولوجيا البشرية . وفى مجال تعداد السكان بصفة خاصة . وليس فى غيرهما من المجالات .

ونظرا للتقدم الذى أحرزته علوم الطب والصحة فقد نشأ موقف جديد للغاية . يمكننا أن نطلق عليه «تحديد الموت» فغاية ما كان الانسان يرجو أن يبلغه من عمر فى قمة الحضارة الرومانية الكلاسيكية لا تتجاوز ٢٠ سنة فقط ، فى حين أنها الآن حوالى ٧٠ سنة فى الدول الغربية المتقدمة من الناحية التكنولوجية . ونسبة الوفيات وخاصة وفيات الاطفال فى انخفاض فى كل مكان . وكانت نتيجة ذلك أن نشأ نوع جديد من زيادة السكان . كما أنه قد بدأ يطرأ على تعداد السكان تضخم مكدود مجهد وجديد للغاية .

وهذه أول لحظة فى التاريخ الانسانى يجابه فيها الانسان عن وعى مشكلة الدور الذى يلعبه فى تطور هذا الكوكب . ويعمل التطور فى شكل انبثاق سلسلة متعاقبة من الانواع السائدة وكانت آخر ثلاثة من هذه الانواع السائدة هى الزواحف التى تحقق لها السيادة فى العصر الميزوزوى منذ ما يقرب من ٢٠٠ مليون سنة حتى قرابة ٦٠ مليون سنة مضت . ثم جاءت الثدييات المشيمية التى ظلت سائدة خلال العصر السينوزوى منذ انقضاء ما يقرب من ستين مليون سنة . وأخيراً انبثق النوع الانسانى الذى بدأ يظهر إمكانياته خلال العصر الجليدى . ولكنه لم يصبح سائدا حقا وبمعنى

كامل إلا فى الأزمنة التى أعقبت العصر الجليدى واستحداث الزراعة . ويجدر بنا ألا ننسى حداثة عمر الإنسان من الناحية البيولوجية وقد استمرت فترة سيادة الانسان حتى الآن أقل من عشرة آلاف سنة بالمقارنة بسيادة الانواع السابقة التى استغرقت عشرات الملايين من الأعوام . والانسان لا يزال فى قمة مد التغير التطورى . وإن كان أسلوب تطوره قد أصبح بطبيعة الحال نفسيا - اجتماعيا . وليس بيولوجيا - أى أن تطوره يتم عن طريق تناقل التقاليد ، وليس عن طريق تغير يطرأ على الجينز أو الصفات الموروثة .

وفى فجر الحضارة منذ خمسة آلاف سنة ، لم يكن مجموع السكان بأية حال من الأحوال يربو على ٢٠ مليون نسمة بكثير . واليوم نجد أن مجرد الزيادة السنوية فى تعداد سكان العالم تكاد تصل إلى ضعف هذا العدد . وإذا استثنينا النكسات الموقوته التى تعترى العالم من آن لآخر ، فإن تعداد سكانه قد ازداد زيادة مطردة . فهو قد وصل إلى بليون نسمة فى عام ١٨٥٠ ، وإلى بليونى نسمة فى عام ١٩٢٠ . ويتكاثر السكان تكاثرا ذاتيا بطبيعة الحال . مثلهم فى هذا مثل النقود التى يدفع عنها ربح مركب . والظاهرة التى تدعو إلى الانزعاج أكثر أن نسبة فائدة هذه النقود المركبة المستحقة عن الزيادة هى نفسها تتزايد تزايدا مطردا كذلك .

وقبل اكتشاف الزراعة لم تكن نسبة الزيادة تربو على ٠,٠٠١٪ ومنذ ثلثمائة عام كانت النسبة اقل من ٠,٥٪ . ولم تبلغ ١٪ ألا بعد انقضاء فترة طويلة من القرن الحالى وهى تبلغ الان ١,٣٪ . ولا تزال فى ازدياد . وحتى بمساعدة الثورة الصناعية والتكنولوجية التى نستطيع أن نرد بدايتها إلى عام ١٩٥٠ تقريبا ، فإن زيادة عدد سكان العالم إلى الضعف قد استغرقت منذ ذلك التاريخ نحو قرنين من الزمان . وإذا لم يدمر العالم طوفان عارم فإن سكانه فى يومنا الراهن سيتضاعفون فى أقل من خمسين عاما من الآن . وقد أنتجت لجنة السكان بالامم المتحدة فيلما ينبىء بزيادة أسرع من هذا . وحسب تقرير هذا الفيلم قد يربو عدد السكان فى عام ٢٠٠٠ على ٦,٤ بليون نسمة .

ونتيجة ذلك نجد أن جانبا من الاحياء فى يومنا الراهن ممن يمعن الفكر قد بدأ يسأل أسئلة جديدة بصدد الانسانية . ويحاول هؤلاء الناس أن ينظروا إلى موقف العالم الراهن من زاوية تطور الانواع فمن وجهة نظر عملية التطور المستمر ما هى الوظائف التى تحتاج الى سطح الأرض للقيام بها ؟ وما مدى النجاح الذى تؤديه هذه الوظائف الآن ؟ وعندما نبدأ التفكير فى مثل هذا الاطار نجد انفسنا نصطدم بحقائق ومبادئ وافكار كثيرة لم تكن لتعكر صفو الأجيال السابقة .

هناك قبل كل شئ الحقيقة الواضحة التى تتجلى فى أن سطح الأرض محدود . والانسان لا يستطيع أن يجابه تزايدا غير محدود فى تعداد السكان (أوفى أى نشاط إنسانى) ولكن يجب عليه أن يبدأ التفكير بلغة التوازن . والتغيرات السريعة الهائلة فى آلاف الأعوام القليلة الماضية ليست سوى أعراض الحداثة الإنسانية وعدم النضوج حقا . وسواء نجحنا فى إنتاج الغذاء المركب صناعيا أم لا ، فمن الاسلم أن نتنبأ بأن نسبة كبيرة فى طعام الانسان سيستمر استنباتها بوسائل طبيعية عن طريق الزراعة كما هو الحال فى يومنا الراهن . وهناك تنازع خطير بالفعل فى البلد التى تتمتع بمستوى تكنولوجى مرتفع وتتسم بكثافة سكانية مرتفعة كما هو الحال فى انجلترا بين استخدام الارض من أجل إنتاج الطعام وبين استخدامها فى أغراض الاسكان وانشاء الطرق والمطارات .، وجدير بالذكر أن مساحة لندن تكاد تكون قد تضاعفت فى الفترة بين ١٩٠٠ ، ١٩٥٠ .

والنمو المطلق فى حجم المدن هو نتيجة اخرى لنمو السكان العام . فقد وصلت نيويورك وطوكيو ولندن مثلا إلى حجم يتنافى مع الاهداف التى وجدت هذه المدن من أجلها . إذ يتعين على عدد كبير من قاطنيها أن ينفقوا ساعتين أو ثلاث كل يوم يتكبدون فيها مشقة الوصول إلى أعمالهم والأوبة منها . كما أن مشاكل المرور والاماكن المخصصة لوقوف السيارات قد بلغت حدا من التأزم يكاد يستحيل معها ايجاد الحلول لها .

وإلى جانب إنتاج الطعام ، هناك مشكلة حفظ الرطوبة ومنع تأكل التربة . فقد كانت الغابات تغطى فيما مضى مساحة شاسعة من الارض كما كان الحال فى الصين والشرق الاوسط مثلا . ولكن هذه المناطق أصبحت عارية من الاشجار ، وتغير الطقس وتآكلت الطبقة العليا من التربة الخصبة بعض الشيء أو كل الشيء .. ويستطيع المسح العلمى أن يميط لنا اللثام عن المساحات فى سطح الارض التى تتطلب إما إعادة تشجيرها أو اتخاذ التدابير الخاصة بمنع تأكلها .

ولكن قبل أن نتابع من الناحية الايجابية الموضوع المتعلق بافضل فائدة يمكن للإنسان أن يجنيها فى سكنه الأرضى ، دعنا ننظر إلى الامر من أظلم زاوية ممكنة . لقد خاطب هاملت الانسان باعتباره المثل الاعلى للحيوانات . وهو وصف لايجانبه الصواب باعتبار أن الانسان آخر نوع دانت له السيادة فى عملية التطور - طالما أنه لايدمر نفسه بنفسه . ولكنه إذا سمح لنفسه أن يتكاثر دون ضابط فهناك خطر من أن يصبح السرطان الذى يشوه وجه هذا الكوكب .

ففى آخر الأمر ، ما هو السرطان ؟ أنه نوع من النمو البشع أو المرضى تتزايد خلاياه دون ضابط . وتسلك سبيل التكاثر الذى لا حدود له . وتفقد شيئا من تنظيمها أو كل تنظيمها ويصبح السرطان طفيليا يعيش على حساب الجسم المنتظم . وتبدأ خلاياه فى غزو وتدمير الانسجة العادية السليمة . وقد تنحرف مجموعة من هذه الانسجة في مجرى الدم مكونة أنواع النمو الثانوية المدمرة المعروفة طبيا بالميتستاسيس أو تكاثر الخلايا المدمرة .

وكوكبنا ليس كائنا عضويا . ولكنه نظام عضوى تترابط أجزاؤه . وحتى وقت قريب كان الماء والتربة والموارد المعدنية والهواء والنباتات الخضراء والبكتريات والانسان - كان جميعها مشدودا إلى بعضه بعضا ، فى شبكة من الترابط المتوازى والاعتماد المشترك المتعادل . وتطور النظام باسره فى بطء وجلال عن طريق سلسلة من التحويلات الذاتية التى توفر إمكانيات جديدة للنظام كله تدعو للغرابة والعجب وخاصة

للحياة الحيوانية وإلى وقت قريب لم يقم الانسان أو أى كائن عضوى آخر بالافراط فى التكاثر أو الافراط فى استغلال الموارد واستنزافها . وقد كانت الزيادة في السكان مقيدة تخضع لحدود وضوابط مختلفة هى إلى حد ما ضوابط الامراض والهلاك جوعا والتنافس القاسى الذى لا يعرف لينا أو هوادة . وهى نفس الضوابط التى نجدها بين الحيوانات الأخرى . ولكنها إلى حد ما كذلك ضوابط يخلقها الانسان مثل الحرب أو القيود التى يفرضها الانسان على ذاته مثل ازهاق ارواح الاطفال والامتناع عن العلاقات الجنسية .

ولكن التكاثر فى السكان الذى لا يضبطه ضابط يخلق الان حالة يمكن أن تطلق عليها بوجه حق حالة سرطانية . وقد سبب اجتثاث الغابات كما سببت وسائل الزراعة السيئة التآكل ، وأزالت كثيرا من التربة التى تشكل أساس الانتاج الزراعى . وفى القرن الماضى بدأ الانسان يعيش بصفة متزايدة على موارد هائلة من الفحم والبترول والمواد المعدنية الاخرى . وهو الآن يستهلك فى مدى أجيال أو قرون قليلة ما استغرق فى تجمعه عشرات الملايين من الاعوام . وقد ارتفع استنزاف الانسان لموارده بالنسبة لرأسماله ارتفاعا يتزايد مع الايام يصل احيانا إلى حد الخيال . وهكذا نجد أن استهلاك الولايات المتحدة للمعادن والوقود المعدنى منذ عام ١٩١٨ يزيد على مجموع ما استهلكته الانسانية باسرها فى كل تاريخها السابق . ولم يحدث قط أن أظهر أى نوع آخر ما اظهره الانسان من زيادة معربدة لا رابط لها فى التكاثر والاستهلاك على حد سواء . بل لم يحدث أن واجه الانسان هذا خلال تاريخه السابق .

ونظرا إلى الخلل الذى يصيب التوازن بين الموارد وتعداد السكان ، سينخفض كيف السكان ما فى ذلك ريب ، ويستنزف الانسان الارض حتى يغيض الدم من وجهها . كل هذا من أجل توفير لقمة العيش لعدد من المخلوقات مفرط فى الزيادة ، مدموغ بالفشل والاحباط ، ناقص النمو يحيا أساسا حياة الطفيليات . ويمكننا أن نقدر بالحساب أن تحول الانسان سيد الخليقة إلى السرطان الذى يشوه وجه الارض سيتم

فى غضون قرن إذا لم يفعل شيئا يمنع هذا التحول . وفى التطور البيولوجى تكتسب الانوا ع الحيوانية الناجحة فى آخر الامر صفة الثبات عن طريق الضوابط والتوازن الاوتوماتيكى ولكن الانسان الحديث قد حرر نفسه من هذه الضوابط والتوازن الاوتوماتيكى . وهو بحاجة إلي أن يهدف واعيا إلى ثبات تساعده فيه القيود المرسومة والتوازن المخطط المدبر. لقد بلغنا مرحلة اصبح فيها الحل الوحيد أمام الانسان حتى لا يستحيل ظاهرة مرضية هو أن يمارس سياسة سكانية واعية . وقد جعلت الزيادة المدهشة فى تحديد الموت والسيطرة عليه انتشار تحديد النسل على نطاق عالمى واسع أمرا لا مناص منه .

ويعود بنا هذا إلى الجانب الايجابى من المشكلة وعلينا أن نغوص إلى الاعماق كما سبق لى أن اقترحت حتى تصل إلي المبادىء الأولى ونسأل انفسنا . ما هى الوظائف التى تحتاج من سطح الارض أن يؤديها لنا ؟ وما هى الوظائف المرغوب فيها أكثر من أى شىء آخر التى يستطيع سكان الارض من البشر أن يقوموا بها ؟ وما هو أفضل سبيل للقيام بها ؟ وإذا أردنا أن نطرح السؤال بطريقة أكثر عموما وشمولا، ماذا ينبغى أن يكون هدف الانسان ؟ وكيف يمكنه ، باعتباره النوع العضوى السائد فى الارض أن يوجه مستقبل تطور كوكبه ؟

واحدى وظائف الارض التى بدأنا لتونا فى التعرف على اهميتها هى الاختلاء بالنفس وهى وظيفة السماح للناس بأن يتخلصوا من تعقيدات الحضارة الصناعية ، وأن يتصلوا بالطبيعة البديعة التى لم يمسها الفساد . وليس كل انسان بطبيعة الحال يحب الاختلاء بالنفس ، ولعل من حسن الحظ أن عددا كبيرا من الناس يستمتع بالزحام ويفضل أن تنظم له عطلاته ورحلاته . ولكن أحباء الوحشة والاختلاء بالنفس يشكلون أقلية لها حسابها ويشتملون كذلك على نسبة لها اعتبارها من الشخصيات التى تثير الاهتمام ، ومن المفكرين الخلاقين الذين لا يلجأون إلى النقل أو التقليد . وتوفير الاختلاء بالنفس هو على المدى الطويل إحدى الوظائف الهامة التى تتطلبها

الانسانية من سطح الكرة الارضية . والمتنزهات العامة والمناطق الشبيهة بها حيث الاستمتاع بالطبيعة ، عظيمة الدلالة فهى ليست إلا محاولات نحو ارضاء هذه الحاجة . ولكن الاختلاء بالنفس لا يتمشى بطبيعة الحال إلا مع كثافة سكانية منخفضة للغاية .

وبالاضافة إلى ذلك هناك وظيفة الحفاظ العلمى والطبيعى ، الامر الذى يدعو إلى ضرورة افراد مناطق يفوق فيها الاهتمام بحياة البداوة والفطرة أو على الاقل اهتمام الانسانية بالاستمتاع بحياة البداوة والفطرة اعتبارات الزراعة والتموين أو أى شىء آخر فأى انسان تقع انظاره على الحيوانات الضخمة فى بيئتها الطبيعية لا يستطيع أن ينسى روعة المشهد وهزته . فهو يجعل الانسان يدرك الجمال والعجب وروعة وغرابة ما تحققه الحياة التطورية . ولهذا المشهد قيمة فى حد ذاته ومن أجل ذاته ، كما أن له قيمة كذلك فى التجارب والخبرات الواعية التى يستطيع أن يوفرها للبشر . وقد تم القضاء المبرم على أعداد هائلة من حيوان الطرد والقنص وبعض الحيوانات الكبيرة الاخرى فى المائة عام الماضية . بل لقد اختفت فى واقع الامر حيوانات الطرد والقنص في ربع القرن الذى انقضى على رؤيتى لاسراب التيتل (البقر الوحشى) والحمار الوحشى من مساحات هائلة فى افريقيا ومن الواضح الان أنه يجب تخصيص مساحات من الاراضى تهتم بالحفاظ فيها على هذه الحيوانات قبل اهتمامنا بأى شىء آخر بما فى ذلك فلاحة الارض أو اسكان الانسان .

وهذا نفسه ينطبق على الثدييات الصغيرة كما ينطبق على الطيور النادرة أو الشائعة والحشرات والنباتات الجميلة التى تبعث على الاهتمام . وإلى جانب المتعة التى توفرها لنا المخلوقات الوحشية فإن هناك واجبا علميا يحتم منع انقراض الانواع . والاحتفاظ على الاقل بعينات تمثل المجتمعات والمواطن الايكولوجية المختلفة (الايكولوجيا هى العلم الذى يبحث فى اثر البيئة على الكائنات الحية) وبأعم لغة ممكنة نستطيع أن نقول أن وظيفة حفظ الطبيعة وظيفة يجب أن تخصص لها مساحات ليست

بالضنيلة من سطح الارض .

وفى جهات أخرى من العالم ستصبح وظيفة السيطرة على خط تقسيم المياه ، ومنع تأكل التربة بالغة الأهمية كما ستصبح مهمة زراعة الاشجار أهم الاهداف جميعا . وبمعنى آخر ، ستكون وظيفة البشر الاساسية هى زراعة الغابات وليس تناسل الانسان أو انتاج الطعام من اجله - فوق مساحات من الارض واسعة للغاية . ونحن نجد فى انحاء مختلفة من العالم كالهند مثلا أن الصدام قد بدأ بالفعل بين هذين الهدفين .

ومن ثم يتضح أننا بحاجة إلى تخطيط دقيق بشأن أحسن وسيلة لاستغلال موارد كوكبنا ويجب منع قطاعات كبيرة من سطح الارض من أن تزدحم بكثافة سكانية عالية . بل يجب أن تسودها بعض الوظائف الأخرى .

وستستمر حاجتنا إلى هذا التخطيط الدقيق حتى إذا توفر للنوع البشرى الغذاء السليم غير المنقوص وسنجد فى خلال المدى البسيط الذى تستغرقه ثلاثة أو أربعة أجيال أن التكاثر الانسانى دون ضابط أو قيد سيصل بتعداد السكان والكثافة الانسانية إلى نقطة تصير بعدها الزيادة السكانية غرما لاغنما ، وينخفض بعدها مستوى استكمال الحياة الانسانية بدلا من أن يرتفع . ولكن ما أبعد هذا عن الواقع . فنحن نجد فى واقع الأمر أن ثلثى ما يربو على ١/٢ ٢ بليون نسمة في العالم اليوم يفتقرون إلى الغذاء السليم أما لمجرد النقص فى السعرات الحرارية واما بسبب نقص بعض الفيتامينات أو أى عامل غذائى يحتاج إليه الانسان لاستكمال اسباب الصحة الموفورة والنمو والطاقة .

ولهذا فإن ما نحتاج إليه قبل أى شىء آخر هو الاتفاق على سياسة سكانية عالمية تمكننا من أن ندرأ نكبة الاتجاه الراهن الاسيف ، وتعالج في نفس الوقت محنة الاغلبية التى تعانى من سؤ التغذية والاتجاه الراهن إلى الافراط فى استغلال الموارد ، وإلى

الاكثار من انجاب عينات ونماذج بشرية يتزايد ما يحيق بهم من فشل واحباط ، وتزدحم بهم الارض دون أن ينموا النمو الكامل السليم . إن التاريخ الانسانى فى مجموعه إلى يومنا الراهن سجل يدون تقدم الانسان فأعداد البشر الذين يتمتعون بدرجة أكبر من استكمال الحياة واستيفائها فى تزايد كما أن المستوى العلوى لما حققته الانسانية فى ارتفاع مطرد . ولكننى أتنبأ بوصفى مؤمنا بالمذهب التطورى تنبؤا لا يخامره أدنى شك بأن مضاعفة تعداد السكان الحالى سيعنى قلب هذا الاتجاه التقدمى للتطور الانسانى وتغييره . وهى ستعنى أن سكان العالم سيزدادون بكثافة لا طاقة للعالم بها . وأن مستوى تغذيتهم ونموهم الجسمانى سينخفض كما أن فرص الاستمتاع بالحياة واستكمالها ستقل . صحيح أن الانسان سيظل النوع السائد من الناحية البيولوجية ، غير أنه سيسلك طريقا يسير فيه نحو الاضمحلال والانحلال على منحدر يرجع به إلى الوراء .

ولكن بارقة من الأمل تلوح فى الافق ، فهناك الان ثلاث دول قوية هى الهند واليابان والصين تتبنى سياسة رسمية تستهدف تحديد النسل . وقد أعقب اتباع هذه السياسة البدء فى تنفيذ مشروعات رسمية خاصة بتحديد النسل فى عدد قليل من المناطق التابعة لها . ولانتهاج الصين سياسة تحديد النسل اهمية قصوى ، لا لأن تعداد الصين يبلغ ما يزيد على ٦٠٠مليون نسمة فحسب ولكن لانها بلد شيوعى . فرأي الشيوعين الروس الرسمى حتى الآن لا يزال ماثلا فى معارضتهم المريرة من الناحية الايدولوجية للفكرة باسرها وقد بلغ بهم الامر إلي درجة أنهم يؤكدون استحالة ازدحام العالم بالسكان لان التقدم العلمى والتكنولوجى سيتكفل دائما بحل المشاكل السكانية . كما انهم يذهبون إلى أن فكرة تكاثر السكان وازدحامهم لا تخرج عن كونها اختراعا استحدثه الاقتصاديون وعلماء الاجتماع الذين يعملون فى خدمة الرأسمالية والاستعمار الغربى . وتفسير الموقف على حقيقته هو أن الاتحاد السوفيتى لا يزال حتى الان يفتقر إلي المزيد من السكان ولكنه سيعانى من ضغطهم فى مدى ثلاثة أو اربعة اجيال على الاكثر .

وإنها لظاهرة من أعجب الظواهر فى العالم الحديث أن يتفق الشيوعيون الروس والروم الكاثوليك على أن تحديد النسل شر - ويكاد هذا أن يكون الموضوع الوحيد الذى يتفقون بصدده . والامل يحدونا إلى أن يتأثر الروس بسياسه حليفتهم القوية الصين(١) . كما أن يتأثروا بالحقائق كذلك . وقد أعلن البابا نفسه بمناسبة انعقاد مؤتمر هيئة الأمم المتحدة الخاص ببحث مشكلة العالم السكانية فى روما أن التزايد المفرط فى السكان يمكن أن يشكل وضعا بالغ الخطورة وأن يفضى إلى شقاء عظيم . وحبذ البابا أن يهتم سائر الكاثوليك الذين يمعنون التدبير والتفكير بدراسة مشكلة السكان .

وينبغى أن يكون هدفنا الآن الوصول إلى اتفاق بين الدول فى العالم على حاجة إلى انتهاج سياسة عامة تستهدف تحديد النسل ومن الواضح أنه من الافضل أن تؤيد هذا الاتفاق اغلبية كبيرة فى الامم المتحدة . ولكن إذا ثبتت استحالة تنفيذ هذا الأمر فسيكون أفضل بكثير من لاشىء لو أن مجموعة من الأمم اعلنت التزامها بمثل هذه السياسة حتى عن طريق إنشاء نوع جديد من حلف الاطلنطى يعنى بمشكلة السكان بدلا من عنايته بالدفاع .

والإنسانية بحاجة إلى أن تحزم أمرها بصدد الغرض النهائى من الوجود الانسانى أو غرضه السائد على أقل تقدير . أهو الاستمتاع الجسدى فى هذا العالم ، أم هو الخلاص فى عالم آخر ؟ هل القوة والنسل القوى ؟ أم هو إطاعة قانون أخلاقى يتجاوز الفرد ويفرض عليه من فوق ؟ هل هو المعرفة أم هو الثروة ؟

إنى شخصيا أرى أنه لا سبيل للهرب من النتيجة التى تتلخص فى أن غرض الانسان السائد يجب أن يكون استمراره فى الاتجاه التطورى الذى استغرق بليون سنة نحو استكمال اوفر للحياة وتحقيق امكانيات أكثر وأفضل . والانسان الآن هو العامل الوحيد المسئول الذى تستطيع به العملية التطورية أن تستمر فى هذا الاتجاه

(١) لاحظ أن ج . هكسلى كتب هذا المقال قبل الجفاء الذى حدث بين روسيا والصين .

وليس هناك سبب يدعو إلى الاعتقاد بأن هذا الاستمرار سيحدث اوتوماتيكيا . فمن الممكن أن يرجع تاريخ مستقبله القهقرى تماما كما يجوز لهذا التاريخ ان يسير قدما إلى الامام وعلى اية حال ، فإن السبيل الوحيد الذى يستطيع به الانسان أن يتأكد من انه يتحرك فى الاتجاه السليم هو الاستفادة قدر طاقته من صفتين من صفاته التى ينفرد بها عن بقية المخلوفات – وهما قدرته على التخطيط الواعى على اساس المسح والفهم العلميين واستجماع المعرفة عن تخطيط وتدبير ، إلى جانب قدرته على العمل على نطاق فسيح يشمل رحاب العالم كله .

وعندما يقيض لوجهة النظر هذه أن تجد من يتبناها ، وعندما ندرك أن الإقلال الشديد من السكان ، شأنه شأن الزيادة المفرطة على حد سواء ، تعطل استكمال الحياة الانسانية واستيفائها .. عندئذ سيكون الطريق مفتوحا لرسم سياسة عالمية عقلية .

والزعم بأى شىء يجعل فى الإمكان إقامة أود أكبر عدد من الناس مثل موارد الطعام الجديدة المستمدة من البحر .. أو صناعة الاطعمة المركبة معمليا – رغم كونه طبيا وسليما – زعم يتضح خطله على الفور .. فهناك حد مناسب لتعداد السكان والكثافة البشرية فإذا انخفض هذا العدد المناسب لن تتوفر للانسان الفرصة لتقدم العلوم والفنون وتطبيقها تطبيقاً سليما كما أن الفرصة لن تسنح له لانتاج العمارة الجليلة أو وسائل النقل المتميزة بالكفاءة والاتقان أما إذا جاوز الانسان ذلك الحد فسيبدو الانسان كما لو كان ينتقم لنفسه من نفسه فهو سيجعل الحياة اكثر عناء واقل جمالا . كما سيجعل بعض الاشياء كالاستمتاع بالوحدة والانفراد والطبيعة البكر الوحشية امرا مستحيلا . وسيدمر الانسان الانواع الحية الأخرى . كما أنه سيكتب على الاجيال المقبلة فى آخر الامر سؤ التغذية والحياة القصيرة الأجل والاخفاق العام .

ومن الظواهر المنبئة بالمرض التى تمثل عصرنا والتى جاءت نتيجة زيادة تعداد السكان إلى جانب تحسن وسائل النقل وسهولتها البداية فى تقبيح المدن ذات الجمال

الفريد التى خلقها الانسان بنفسه ولنضرب مثالا واحدا . فمدينة البندقية فريدة فى جمالها . ولكنها أصبحت الآن مزدحمة بالسياح إلى درجة بدأت تعطل الاستمتاع بجمالها ونحن لا نستطيع أن ننتج نسخا بالكربون من مدينة البندقية حتى نجابه طلبات الناس ونلبيها .. وقد بدأ نفس هذا المصير يحل بصورة صارخة على الأماكن التى ذاع صيتها بسبب جمالها الطبيعى .

ويجدر بنا كذلك أن نذكر أنه إذا قدر لنا النجاح فى ممارسة شيء من السيطرة على المصير الانسانى ، فسنستطيع أن نبدأ فى تحسين الكيف الانسانى عن طريق تحسين النسل . وسيوفر هذا لاحفادنا الامل العارم فى إقامة الفردوس الأرضى ، وذلك لأن إمكانيات الإنسان فى استكمال أعظم الأسباب الصحية والنشاط والذكاء والاستمتاع بالحياة تكاد تكون غير محدودة .

وباختصار أمامنا حلان فقط للمشكلة احدهما ان نسمح للسكان بالاستمرار في التزايد بنفس الطريقة التى كانوا يتزايدون بها فى الماض . وستنجم عن هذا دون شك حالة من الزيادة المفرطة فى سكان العالم والاستنزاف المفرط للموارد مما يجعل من العسير علينا أن نتجنب عواقبها الوخيمة إذا قدر لنا أن نتورط فيها . ويتلخص الحل الآخر فى توسيع رقعة استخدامنا للاسلوب العلمى حتى يشمل النسل الانسانى ، وأن ندرس المشكلة باسرها دراسة وافية بقصد انتهاج سياسة سكانية عالمية تتصف بالعملية والقدرة على الإلهام معا .

ونحن بحاجة كخطوة مبدئية إلى دراسة ثقة يعول عليها لما يمكننا أن نسميه استخدام الارض تأخذ فى اعتبارها كل العوامل المختلفة التى ينطوى عليها تطور الارض فى المستقبل بوصفها مقر سكنى الانسان – من الكفاءة إلى الجمال ، ومن انتاج الطعام إلى المواصلات السريعة ومن التطور الصناعى إلى الاستمتاع بالطبيعة البكر الوحشية . وعقد مؤتمر فى الأمم المتحدة متعلق بهذا الموضوع أمر شائك معطل لن يكفل الوصول إلى نتائج حاسمة وأن كان من الجائز أنه يفيد فى لفت انظار

الحكومات إلى موضوعات قد يغيب عن بال معظمها كما أنه لا يمكن أن نتوقع من اجتماع تعقده مجموعات صغيرة لا تحمل صفة رسمية أن يحقق أكثر من استخلاص الاعتراف بأهمية الفكرة . ولعل الافضل حل هو أن تنشىء إحدى المؤسسات الخاصة الكبيرة فى الولايات المتحدة مشروعا يناشد أحسن العقول فى دول كثيرة أن تتقدم إليه بالعون .

وهذه مسألة عاجلة . فسكان الأرض الذين يبلغون أكثر من ٢,٥ بليون نسمة سادرون فى إساءة استغلالها فى يومنا الراهن . وإذا وقفنا مكتوفى الأيدى حيال هذه المشكلة فسيستغلها أحفادنا الذين يبلغ عددهم بكل تأكيد خمسة بليون نسمة بصورة أسوأ . وأكثر من هذا أن الإنسان يسىء إلى نفسه بتكاثره المنطلق المعربد . وإذا لم نفعل شيئا نمنع به أحفاد أحفادنا من أن يصل عددهم (فى أقل من قرن ونصف من الآن) إلى عشرة بلايين نسمة أو أكثر فسنستحق الخزى الذى ستجابه به أجيال عديدة مقبلة .

فهرس الكتاب

صفحة

القسم الأول : برتراند راسل

مقدمة : برتراند راسل الأديب ٥

(١) فى مدح الكسل ١٩

(٢) دفاع عالم عن الديمقراطية ٣٦

(٣) عظماء فى حياة برتراند راسل ٤٥

القسم الثانى : جوليان هكسلى

مقدمة : تحديد النسل من الناحية التاريخية ١٠٧

تحديد النسل هو التحدى الذى يجابه الانسان الحديث ١١٩

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز
الإشراف الفنـــى: حســـن كامـــــل



In Praise of Idleness and Other Essays

BERTRAND RUSSELL

فى عام 1935 نشر الفيلسوف البريطانى وعالم الرياضيات المعروف "برتراند راسل" مقالاً بعنوان "فى مدح الكسل" ذهب فيه إلى أن الحضارة الإنسانية كانت فى الماضى تحتاج لتقدمها إلى كدح العبيد ورفاهية السادة فى حين أن التقدم العلمى والتكنولوجى فى العصر الحديث جعل مثل هذا التقدم فى غنى عن استعباد الإنسان لأخيه الإنسان.

فضلا عن ذلك فإن الكتاب الذى بين أيدينا يضم رأى فيلسوفنا الكبير فى عدد من أبرز المفكرين والأدباء المعاصرين له أمثال "هـ. ج. ويلز" و"د. هـ. لورانس" و"جورج برنارد شو" و"ألفريد نورث هويتهد" و"جورج سنتيانا" و"سيدنى وب". كما أن الكتاب يحتوى على رأى صديقه "جوليان هكسلى" وفى ضرورة تحديد النسل.

تصميم الغلاف: عماد حليم